د. بن عامر زين الدين

رواية

تراتيل الحُب الخفيّة

تراتيل الحُب الخفيَة

د. بن عامر زين الدين

تراتِيل الحُب الخفيّة

في هذه اللحظة بالذات شعر أنه يريد أن يتناول قلما و يضمه إليه بكل أصابعه و بكل لهفة و شوق كبيرين يوازي في جنونهما مذاق الضمة الأولى لحبيب طال انتظاره ربما لأنه "أصبح جائعاً بما فيه الكفاية ليكتب شيئاً ما، شيئا لا يمكن أن يُكتب مع الجرح الأول.. كان لا بد عليه أن ينتظر شعوره بالألم الكافي الذي يجعله يكتب" أو قادرا على كتابة شيء ما يخفف عنه، شيئا كحروف يلقي بها على أوراق طبيب فتستحيل وصفات و بعدها أدوية لجروح متعددة، شيئا ما يرفعه و يتجاوز به السحب إلى السماء فالقلم هو "البرُج الوحيد القادر على الوصول إليها" و يمكن أن يوصله معه.

لذلك كله قُم أيها القلم أريد منك أن تخط معي أحرف رواية، لكن لا أريدها كتابة من البداية إلى النهاية "اجعلها إن شئت شيئا أو جسرا بين الكتابة و الموسيقى" ثم تمايل على ذلك الجسر بعدها كلما راقصتك أصابع يدي طربا، لا يهمني من أين تبدأ.. من البداية أم من النهاية، و لا يهمني إن لم تكن البداية رقصا لابأس الآن بالكلمات.

بن عامر زين الدين من مواليد 1989-5-22م، ولاية جيجل، الجزائر.

متزوج و أب لطفلين.

حاصل على شهادة لسانس: تخصص تسويق، جامعة قسنطينة 2.

حاصل على شهادة ماستر: تخصص نقود ومؤسسات مالية، جامعة قسنطينة 2.

حاصل على شهادة دكتوراه: تخصص اقتصاد نقدي و بنكي معمق، جامعة غرداية.

أستاذ متعاقد بجامعة قسنطينة 2.

له مجموعة مداخلات و بحوث علمية منشورة في مجلات محكمة.

البريد الإلكتروني: zinoubenamerlive@gmail.com

تراتيل الحب الخفية

جَمِيعُ الحُقُوق
مَحْفُوظَة

عنوان الكتاب: تراتيل الحب الخفية
المؤلف: بن عامر زين الدين

تعاونية الفلاح، العلمة ولاية سطيف
البريد الإلكتروني: dar.elmaher@outlook.fr
الهاتف الثابت: 036.48.00.17
النقال : 0777.23.38.83
واتساب: 00213777233883

ISBN : 978-9931-742-40-1
D.L : 11-2019

بن عامر زين الدين

تراتيل الحب الخفية

دار الماهر للطباعة والنشر
الطبعة الأولى 2019

الإهداء الأول:

إليك أيتها العربية لغة وأنثى، لا تخشي وأدا من عرب ولا من غرب لن تُقتلي ولن تموتي أنت الخالدة، وهذا مُحبٌ جاءك يردد شيئا من تراتيل حبه لك هدية ومهرا، فهل تقبلين به حبيبا؟ أنظري إليه مرة واحدة عسى يؤدم بينكما فترضين وهو من قبل قد رضي، ويرى من محاسنك عسى يلهم قولا يوافقها.

فإن كان ذاك أقسمت عليك أن تقومي وتدفعي عنك لفائف الأكفان والأحزان، قومي وارتدي كل حُلَلِك، أثوابك الثمانية بعد العشرين، وخذي شيئا من زينة الجاهلية للتباهي بطول العمر والسنين، هذا عرسك جدتي وأنت في كمالك كما يوم ولدت صبية في العشرين.

لا تدعي الواصفات تفتح لك الأبواب بل اركليها في رفعة ذات.

تيمّني وامشي في دلالك اختيالا ومرحا بإصرار، لا تتواضعي وأرِ دررك الكامنات والصدفات، لكل ناظر ولكل قارئ لا تكتفي منهم بالغوّاص.

واضحك ملء فيك وأنت تأمرين جالسة حيث قُدّر لك في مقعد عزٍّ أمام لغاتٍ راقصات، قوليها من غير تنطّع ولا تشدّق ولا تكلّف كالحسناوات الواثقات.. من جوفٍ، حلقٍ وشفتينِ كذا الخيشومُ ومن طرفي لسانٍ والأضراسِ، لتخرج الضاد مستطيلة عربية منفردة مكتومة الأجراسِ.

د. بن عامر زين الدين.

الإهداء الثاني:

إلى أنثى عربية غارت سرا من ورق ما عاد أبيضا وقد تسلل إليه الحبر جهرا وعليه سال.. وقام فيه قلم يرسم امرأة جميلة من حبر خلقا من غير خلق ولا روح.. حسبت صريره أنفاسها وسيره على الورق حركاتها، وحين يسكن القلم تحسبها قد نامت فتقوم باحثة عن جسدها تتحسسه داخل بنيان الكلمات.. وعن عطرها بين حروفها وهي تشم تحتها.. لعلها تجد دليل الإدانة أو بصمات خيانة أخفقت قفازات اللغة في إخفائها.

أعجزها البحث بعدها فتوقفت عنه مكرهة، وما أعجزتها الغيرة والحب فاستمرت حرة، عزاؤها أن تراتيل الحب بيننا كانت دائما جهورية وهذه تراتيل حب خفية، فكفِّي إذن حبيبتي عن سوء ظن فليس الحبر حب ولا الحب حبر.. وثقي في قلم جمع اسمينا على ورق ميثاقا غليظا قبل أن يجمع اسمين آخرين على ورق آخر دون ميثاق وبغلظة أقل.

د. بن عامر زين الدين.

المشهد الافتتاحي: ما قبل الأذان

اقتباس من النص

((قال لها إن كنت تعتقدين أن الابتسامات وحتى الضحك دليل على السعادة.. فلتعلمي أنني أبتسم لأخفي أحزاني عن الآخرين، وعندما تتراكم الأحزان فوق بعضها البعض لا بد أن تجد لها مخرج طبيعيا مع ضحكات كل عاشق أخرس.. وليس مخرجا طبيعيا مع البكاء، فالرجال لا يُبكيهم الحب "إنما تبكي على الحب النساء" على الأقل في نظر بعضهم)).

...أُسدلت ستائر ركح المسرح وهَمَّ الجميع بالمغادرة.. بينما ظل شابٌ وسيم في الثلاثينات من العمر مسندا وجهه على كفه حزينا شارد الذهن.. ومبتسما أيضا رغم أن نهاية المسرحية لم تكن سعيدة أبدا، حينها مدت فتاة في عمر العُرب الأَتْراب يدها إلى كتفه تسحبه إليها.. ممسكة صبيا بيدها الأخرى وهي تسأل الشاب ودون مقدمات أو مجاملات وكأنها تريد أن تستفزه.

حلاوة صوتها لم تُخفي حشرجة صدرها وهي تقول:

- لما أنت مبتسم؟.. تبدو لي سعيدا، هل أعجبتك المسرحية؟ أليس كذلك؟

لحظتها حرّكت حرارة يدها دمع مقلتيه قبل أن تحرِّك كتفه إذ سبقت حرارة اليد حركتها في البوح، وعرفها من نعومة يدها ورخامة صوتها الأغن ولكنه لم يستطع أن يلتفت إليها لكي لا يُفتضح أمره، هو لا يريد لامرأة أحبها بكل صمت أن ترى دموعه البوّاحة التي تغالبه، فالرجال لا يُبكيهم الحب "إنما تبكي على الحب النساء" على الأقل في نظر بعضهم.

تنهّد حينها واكتفى بسكوت طويل.. كان يريد أن يقول لها دون أن يملك الجرأة على ذلك.. إن كنت

تعتقدين أن الابتسامات وحتى الضحك دليل على السعادة فلتعلمي أنني أبتسم لأخفي أحزاني عن الآخرين، وعندما تتراكم الأحزان فوق بعضها لا بد أن تجد لها مخرج طبيعيا مع الضحك فهذا سبيل كل عاشق أخرس.

فقد جاء لمشاهدة مسرحية حزينة ليملك عند انتهائها القدرة على الضحك، أو على الأقل القدرة على الابتسام، وهو لا يلوم الغرباء على عدم تمييز ألمه وسط تلك الابتسامات لكنه يلوم من بادله الحب الصادق والصمت ذاته.

هل قال لها "أعان الله الصامتين على ضجيج قلوبهم" أم أنها وحدها صارت تسمع صوت صمته.. فاشتدّت حشرجة صدرها وهي تحاول أن تقول له شيئا آخر يكون أكثر استفزازا له لعله يتكلم فيريحها.. وهي ترى أنه لم يبالي بها أو هكذا بدا لها.. فهو لم يلتفت إليها ولم يرد على سؤالها.

فقالت:

- هل جئت لتشاهد مسرحية البوغي؟.. وكلها أحاديث ومشاهد حب، وقد بلغني أنك ستصبح في إحدى الجُمَعِ المقبلة إماما خطيبا.. فهل حضورك هذا مناسب أم ضروري؟

لكن لم يكن سؤالها هذا مستفزا له كما توقعت بل اعتبره تصريحا بحبها الدفين له، وقد أنبأه سؤالها أنها لا تزال تهتم لأمره رغم كل الذي حدث، يكفيه أنها عرفت بأنه سيصبح إماما وهذا دليلا على الاهتمام والحب بالنسبة إليه.

و لم يستفزه سؤالها أيضا فقد ألف كلام الناس حول تناقضات حياته وتعايش معه، وليس يضر الإمام في نظره أن يكون فنانا أو متتبعا لأعمالهم.. في بلد مسلم يرى المسؤول فيه الإمام مشبوها على قدر إيمانه، ذنب الإمام حينها أنه يتطهر.

وحين يخطأ الإمام وتظهر زلاته ويرى الجميع رقصاته قد ينصّب إماما دائما بدل إمام مؤقت أو متطوع، فلا خوف عليه بعدها من التشدد فقد أظهر من التفتح ما يكفي المسؤول ليطمئن على كرسيه، ولكن ليس هذا الذي دفعه للمجيء إلى المسرح اليوم وإنما جاء متدافعا برغبة سرية ما.

لم يسكت هذه المرة طويلا وقام يسألها بدل أن يجيبها.

- وأنت لما تترددين على المسرح كلما عرضت مسرحية البوغي؟ وما الذي يعجبك فيها؟

فكّرَتْ قبل أن ترد على سؤاله ففيه أمارات حب أيضا.. رغم كل سنوات البعد الطويلة والصمت لازال يعرف أين تذهب وماذا تفعل.. ومجيئه اليوم إلى المسرح ربما كان لأجلها وإن تحاشى لقاءها.. يكفيه منها استراق النظرات، فالحب يدفعه وهو يتدافع له برغبات خفية قد تكون متبادلة.

لذلك أرادت أن تجيبه بقولها أحببتك بطلا لمسرحيتنا فصرت أحب بحبك كل أبطال المسرحيات.. لكنها قالت:

- أحببت جرأة بطل مسرحية البوغي في البوح بحبه، هو لم يتوقف عند النظرات.. ففي يوم (البغية) اليوم الأول الذي دخل فيه **ساعد** إلى سيرتا والتقى نجمة**..** أحبها ثم باح لها بكل شيء لحظتها إذ منحها حينها كل ما يملك عربونا لمحبته.. دون أن يعرف من هي، وحين عرف من تكون لم يمنعه جاهها ولا سلطانها في أن يبعث لها مع الخدم رسائل حب.. ولا خشي أن يقف أمام قصرها ليطلب منها تذكارا ودليل محبة متبادلة رغم سكره يومها.

واصلتْ حديثها بنهم عن هذا البطل لتشبع رغبة ما لديها في قول كل شيء دون أن تقول أي شيء، قاطعها

لحظتها وإن كان يحلوا له سماع صوتها الذي يراه سمفونية لوحده.. بل السمفونية التاسعة بالذات.

لكنه فضّل إسكاتها هذه المرة لغيرته من بطل عابر مر على (سيرتا) ذات يوم، دون أن ينتبه إلى أنها كانت تعبِّر عن حبها له في صورة هذا البطل، وهي تراه هو وإن اختلفت أفعالهما حد التناقض، فكل الأبطال عندها بطل واحد هو **علاء**.

رد عليها بقوله:

- وهل ترَين أن الذي فعله ساعد مع نجمة جرأة أم اعتداء على الشرف؟ وهل وقوفه أمام قصرها يطلب منها عربونا على محبتها له وهو سكران وهي امرأة لرجل آخر عين الصواب؟

تنهد قبل أن يواصل كلامه قائلا:

- يجدر بالحب أن يتوقف وأن يخرس حين يتكلم الشرف.

فردت عليه في عصبية قائلة:

- وهل توقف حبك وخرس؟ أم أن ما تفعله بتتبعك لي إلى المسرح لا يختلف عن فعل ساعد مع نجمة؟ وأنت تعرف من أكون أنا ولمن أنتسب.

حينها التفت علاء إليها غاضبا.. هو لم يعهد منها مثل هذه الكلمات الجارحة، أقوالها تغيَّرت لكن جمالها

وعينيه تقعان عليه صرعى معهود لم يتغير، وتقاطعت العيون وحشرجةُ صدرها بلغت حلقها.. فأوقفت مجرى الحروف عندها وهي تحاول أن تقول علاء أأ... وكلمة أخرى في إحدى حروفها ضم للشفتين، وفاض الدمع وجرى بدل الحرف وكاد بل كان يتلألأ.

أراد أن يقول لها دون أن يتكلم وهو يتأملها مشفقا ومستزيدا.. إن كان ساعد جريئا ومحقا في فعله فنجمة أيضا كانت بمثل جرأته.. وهي تلقي بخصلة من شعرها مظفورة بحبات الجوهر النفيس إلى ساعد في المرة الثانية التي رأته فيها، أراد أن يقول لها كلانا مذنبين لصمتنا طوال السنين.. وساعد ونجمة مذنبين أيضا لبوحهما الكامل في بضعة أيام.

و لكن فات الأوان على العتاب لم يعد هذا مجديا.. وما عاد علاء غاضبا من قولها فقد أبرد دمعها الحار حرارة غضبه وهو يسيل على جسده.. وقد أسندت رأسها عليه، وغالب علاء دموعه طويلا وهو يراها تبكي مبتسمة كما كان يفعل دائما سرا "و أصدق الحزن.. ابتسامة في عيون دامعة" فتمردت مقلتيه عليه لحظتها كل منهما بالحب تنضح جهرا.

و بكي الطفل الذي كانت تحمله، ما الذي أبكاه أحاجته للحليب أم للحبيب؟ علاء لم ينتبه من قبل إلى

أنها تحمل طفلا.. وصار له حين رآه أكثر من سبب للبكاء "فدموع الطفل أشد إيلاما من دموع الرجال" لأكثر من سبب، وبكت العيون كلها منها من ينشد حبيبا ومنها من ينشد حليبا.

سحب جسده عنها قليلا وملأ عينيه منها كثيرا.. ومشى خطوات بطيئة ليبتعد عن القضاء إلى القدر.. فهو رجل متدين ولا يمكنه أن يتمرد أكثر.. ولا يمكنه أن يبقى مع الحبيب منفردا أكثر.. ولكن يمكنه أن يبقى منفردا مع ذات الحب، حينها لن يلومه أحد فمجالسة الأوهام لا توقع في الآثام.

سألته بلهفة قبل أن يبتعد أكثر:

- هل ستعود لنشاهد المسرحية معا مرة أخرى؟

وكانت تريد أن تقول هل ستعود لأملأ عيْنَيَ منك كلما عرضت هذه المسرحية؟

أجابها وهو يحاول عبثا إخفاء دموعه:

- لن أعود أبدا أريد أن أعيش المسرحية حتى النهاية لا أن أشاهدها، وقد تعلمتُ منها ما يكفي أحتاج فقط إلى تطبيق ما تعلمت.

ترجّته أن يتوقف وأن لا يذهب ودعته للعودة.. لكنه لم يكن يستمع إلى كلامها.. وهي تحاول اللحاق به، حينها ذكّرته بأن ساعد عاد إلى نجمة وبدعوة منها

لحضور حفل ختان ابنها.. متنكرا ومستعينا بعشرين رجلا من أصدقائه لحمايته أثناء الحفل، فقد كان مطلوبا للقتل بتهمة المساس بالشرف.. بعد أن هاجر إلى عنابة لذات السبب.

التفت إليها للمرة الأخيرة قائلا:

- قبّحهم الله من عشرين صاحبا وهل نفعوه يوم الحفل، ألم يمثِّلوا معه دور الراعي الذي تستأمنه الأغنام على نفسها ليحميها؟ فهي "تعيش طوال حياتها خائفة من الذئاب ثم يأكلها الراعي" المُستأمن. ألم يغنِّي ساعد لوحده أعزلا منفردا ومسترجلا كلمات حبٍ لنجمة أمام زوجها وجميع أهلها.. وكانت هي أيضا حاضرة تطل من إحدى الشرفات حين فرّ كل الذين جاءوا معه.. ومع ذلك واصل الغناء والبوح حتى النهاية التي لم تكن سعيدة.

"وانـا بالبـغيـة تقوى غـرامــي
أهلكـنـي يا سابـغ الشــفر
نجمة يا نجمة ما بقى لك صواب في اللوم عليا
راني غديت لقداك في الشنايع والباطل
اتبقاي بالخـير يا المتهومة بـيا
هذا آخر وداعنا والوعـد اكمـل"

و كانت هذه الكلمات هي الأكثر بوحا والأكثر جرحا في أغنية ساعد أو البوغي.. يرددها المريدون كتاريخ مجيد.. ما داموا عاجزين عن صنع أمجاد أخرى من البوح أو حتى من الصراخ عندما يشتد الألم.

ربما لا تعرف الأجيال كيف يكون التصريح بالحب.. إذا دُرِّبت بما يكفي على كمال الصمت وتمام الاستئمان وتوارثت الخوف.

و حبيبة علاء لم تكن معجبة بهذا المقطع من الأغنية ولا بالوداع الذي كَمُل، وإن كانت تحب القصة والأغنية كما تحب علاء.

تمنّت أن يقول لها كلمة أخرى غير الوداع قبل أن يغيب عنها وقبل أن تخفيه مياه واد الرمال.. الذي بدا لها أنه ما عاد هادئ وقد خرج عن مجراه وملأ الساحات.. دون أن يجرف أحدا أو يغرق الآخر، ولكن منظره في الشوارع كان مخيفا وإخفائه لعلاء أفزعها، وحتى الخوف يمكن أن يخاف ويغيّر مجراه في وطني.

بدا لها أنه قال قبل اختفائه وقبل أن يحول بينهما الماء، إن كنت دعوتني للعودة لألقى مصير ساعد فسأتطابق لأجلك مع مصيره، وإن كنت دعوتني

للعودة لأجلنا معا فتعالي لنلقى مصير نجمة وساعد معا.

***

حينها فقط استيقظت **أناغيم** فزعة صبيحة يوم الجمعة 22 فيفري 2019م.. واستبقت نافذة غرفتها تطل منها على عجل.. لتتفقد شوارع مدينة قسنطينة وكل أحجارها ومنحوتاتها.. هل بقيت صامدة؟

فرأت واد الرمال لازال يسري تحت الجسور وهو سيّدها، فجسور المدينة مدينة له على الأخدود الذي حفره منذ مئات السنين، فجعل بذلك للجسور موطنا وضفتين تمسك بهما كي لا تقع، ولولا عمق الأخاديد ما بانت رفعت الجسور.

نعم لا يزال الوادي هادئا رغم دوي شلالاته البعيدة والجميع نائمون سكرى، ربما "اليوم خمر وغد أمر".. ولم يحن بعد وقت الصلاة، وآخرون خائفون يحبون وطنهم سرّا و"يرقبونه من ثقوب أبواب بيوتهم سرا" أيضا.

رفعت أناغيم رأسها فرأت شمسا تسللت خيوطها الذهبية باكرا من بين خصلات شعر غيوم ظالمة ركامية منخفضة.. منعت أماً عن تفقد بيتها القسنطيني

لأيام عديدة في فصلٍ شتوي قارص تحتاج فيه كل مدينة لأم تبث فيها الحياة.

فأسرعت الشمس إلى أبوابها السبعة العتيقة تدخلها جميعا دفعة واحدة وتمر عبر أزقتها الضيقة الواحدة تلو الأخرى، لتتفقد جسورها الثمانية وكل تماثيلها ومنحوتاتها، فتمسح عنها ما علق بها من جليد وثلج وماء وتدفع به نحو أخاديد واد الرمال السحيق، قبل أن يأتي ضيوف المدينة وضيوف الرحمان لأداء صلاة الجمعة في مساجدها العتيقة.

وعند انتهائهم من الصلاة لن يعودوا إلى بيوتهم ولن يمتثلوا لآية كريمة وإن آمنوا بها فهي تقول: "و إذا قضيت الصلاة فانتشروا..." وقد أجمعوا أمرهم بعد الصلاة أن لا ينتشروا.

أخذت الغيوم تلعب بزخات مطر وثلج نكاية في الشمس كي لا تريحها كعبث أطفال في عطلة أسبوعية، فأخذت الحياة تدب في المدينة رويدا رويدا رغم أنف الغيوم السوداء والبيضاء وعلى حين غفلة منها مع هذه الإشراقة الصباحية.

لتعرف بذلك الجنية العاشقة أنه وقت نومها وأنه يجب عليها أن تتجسد في نصب الأموات أو تمثال إلهة

الانتصار (الموليمو).. بعد ليل طويل متجدد هامة فيه باحثة عن محبوبها.

تسأل في ذلك كل صخور المدينة الكلسية المتحجرة.. وتبدأ بالصخور التي يقوم عليها جسر سيدي مسيد (جسر العشاق) المنتصب تحتها وهو أقرب جسر إليها، وهي تفعل ذلك منذ زمن بعيد ومن أيام صالح باي.

ذاك الفتى الهارب من مدينة إزمير التركية إلى مدينة الجسور المعلقة.. خوفا من عقوبة القتل الخطأ على رميه لصديقه من أعلى تلة إلى البحر.. لينضم إلى صفوف الجيش الانكشاري في قسنطينة بحثا عن حُلميْه الذي قرأته (شوّافة) المدينة على كفه.. والذي قرأه هو في عيون ميمونة الشابة اليهودية خادمة حاكم المدينة.. وبنت مسعود النجار صانع الآلات الوترية، فظفر بالحلم الأول وصار باي المدينة وعظيمها (1771-1792) ومات دون تحقيق حلمه الثاني.

فبَكَتهُ يوم اغتياله قسنطينة كلها لصلاحه لا لجماله.. ودون نفاق ارتدت النساء الملاية السوداء المحتشمة حداد عليه لقرنين متعاقبين، وكان يجب أن يكون لباسا وحدادا أبديا.. لولا مصيبة قتل الأخ لأخيه في عشرية

سوداء (1989-1999م) انتزعت من النساء الملاية السوداء.

و إن كانت الجنية العاشقة تنام نهارا فإن السيدة العذراء أو (مّا مريم) لا تنام أبدا ليلا ونهارا.. شامخة فوق تلة تعلو مقبرة اليهود مُطلةً على المسلمين غير بعيد عن نصب الأموات.. منحنية الرأس مشفقة على أهل المدينة مطرقة سمعها وقد ضمّت كفيها تردد تراتيلها في صمت من وسط ثكنة عسكرية.. ليحفظ الإله السلام ويديم الحب في المدينة.

علت أصوات المآذن وتوقفت السيدة العذراء عن الصلاة احتراما وتعايش في مجتمع مسلم.. كما كانت تفعل ذلك دائما.. لكنها اليوم تتوقف لسبب آخر وهي ترى شاب في زهرة العمر يتجاوز نصب الأموات نحو الحافة.

فعادت لتطرق رأسها وأخذت تصلي لأجل أن يحفظ الإله علاء.. وهي ترى جسده يهوي من على مئات الأمتار ككتلة ثلج بيضاء كبيرة رمت بها الغيوم العابثة.. متجاوزا بذلك جسر العشاق صوب الوادي.

- ألو سيدي هناك انتحار لامرأة من أعلى نصب الأموات.

كان ذلك نداء تلقاه أفراد الحماية المدينة من أحد السُوَّاق المحتالين الذي رأى بياضا يندفع إلى واد الرمال وغربان سوداء تطير.. فهناك خطيئة أخرى يرتكبها ابن آدم في كل زمان ومكان.. وبين رؤية البياض والسواد كان هناك دوي لشيء ما يرتطم بصخور الوادي.

بدأ أفراد الحماية المدنية من الغطاسين ذلك المساء مهمة البحث عن أشلاء جسد هذا المنتحر وبقايا ثيابه في واد الرمال وعلى ضفافه في كسل وحزن، بعد أن خرج المصلون من مساجد المدينة وقد أدوا صلاة الجمعة غير رواد الجامع لخضر فقد اكتفوا بصلاة الظهر.

- من قائد فرقة الغطاسين إلى المركز نحتاج دعما من فرقة المتسلقين فورا عثرنا على الضحية وهو على قيد الحياة، إنه يعاني من حروق متعددة وبعض الجروح بسرعة سيدي.

- هل استطعتم التحدث مع هذه المرأة؟

- نعم ولا...أ..أ.. أقصد تحدثنا مع الضحية وهو ليس امرأة بل رجل يرتدي برنوسا أبيضا ملتح عليه هيبة ووقار الشيوخ وعن شماله أشلاء آلة موسيقية.

ثُبِّتت الحبال على قنطرة العشاق وتدلت لتصل أعماق الوادي، ورُفع جسد علاء بسرعة صوب المستشفى الجامعي عبد الحميد ابن باديس المحاذي للجسر، وبالسرعة ذاتها انتشر الخبر وغدّته الإشاعات وكثر المتطفلون في المستشفى وحوله، وازدحم المسترقون لأنصاف الأخبار.

وأطلّت عناوين الصحف صباحا تركّز على كون الضحية والمجرم معا إمامٌ، على شاكلة رجل عضّ كلبا فهي لا تأبه بأن يعضّ كلب رجلا، وحدها الأخبار الاستثنائية تستطيع أن تشبع نزوات أصحاب القلم.

وأخبار أخرى تحكي خرافات لها من القرّاء من يصدقها عن جنية نصب الأموات العاشقة التي أنقذت محبوبها وأحرقت نار حبها أطراف جسده.

- سيدي...علاء يفتح عينيه.

تقولها ممرضة لزمت المريض منذ أُدخل المستشفى في غير دوامها ليلتفت رئيس الأطباء للمريض على عجل متسائلا وحامدا.

-كيف حالك؟ والحمد لله الذي وهبك عمرا جديدا.

يرد علاء وقد استفاق من سكرته بصوت خافت:

- الحمد لله.

- هل اسمك علاء يا ولدي؟

- نعم علاء يا سيدي.. علاء الجزائري.
- وما وظيفتك؟
- إمام الجامع لخضر.

و لم يقل إمامٌ ومحتال في الوقت ذاته، هو لا يريد أن يسئ للإمامة أكثر.. يكفي أنه حاول الانتحار وهو رجل دين.

يسكت علاء بعدها ويتوقف عن الإجابة على الاستفسارات التي توالت عليه.. تساؤلات يطرحها كل الأطباء الذين أحاطوا به دون حاجته إليهم بل كانت حاجتهم إليه أكبر.. لعله يروي عطشهم من أسرار إمام ينتحر، والعجب أن ينجو والأكثر عُجَابًا من ذلك بحروق في يوم مُثلج ماطر وعن شماله أشلاء كمنجة.

تاركين مرضى آخرين يتأوهون من شدة ألم المرض وألم غياب الطبيب في المستشفيات الحكومية التي يتقاضى فيها الطبيب نفس الأجر وإن اختلف مجهوده.

يغادر الأطباء بعدها بأمر من رئيسهم الذي طلب طبيبا نفسيا للمريض، بينما ظلت الممرضة أناغيم جنبه تتأمله في حب عاشقة وحنان أم وحمد نبي متبتل، تمسح جبينه تارة ويديه تارة أخرى ودموع فرح تغالبها تسيل في الحالتين.

سألته بصوت خافت حاني قائلة:

- لماذا فعلت هذا يا علاء؟ ألستَ تـ.. تُحِـ... ؟

و تنحنحت فحجبت الأحرف المتبقية للكلمة.

على كل حال هو يعرف ماذا تريد أن تقول ولا يلومها على صمتها.. يكفيه منها لحظتها أن لامس جبينه راحتيها.

اكتفى برفع رأسه والتمعن في النظر إليها دون أن يجيبها، وبما يجيبها هو لا يملك جوابا عن سؤالها المعلن فكيف يجيبها عن سؤالها الخفي.

اختلطت على أناغيم الأحلام باليقظة وهي تريد أن تسأله مرة أخرى، هل ما فعل ساعد وفعلتَ أنتَ هو الحل؟ وهل تريد لي مصير نجمة وتدعوني إليه؟ وهل قدرنا أن نعيش قصة نجمة وساعد كاملة دون تغيير؟ أم علينا أن نجد حل آخر يخالف قصتهما ولو في نهايتها.

هو لم يسمع منها أي سؤال لحظتها ولكن خواطرهما صارت مشتركة وأصبحا يسترقان أفكار بعضهما.. ويطّلعان على جملهما غير المنطوقة حين تتقاطع نظراتهما.. فبينهما زمن طويل من الحب الخفي.

فرد عليها في سره كما سألته سرا وهو يخفض رأسه بعد أن ملأ عينيه منها، وأي حل آخر يا أناغيم ترينه مناسبا لحبنا المستحيل.. ورفع صوته دون شعور منه وهو يحدث نفسه فسمعته يقول:

- يجب أن يتوقف.

فبادرته بالسؤال قائلة:

- وما الذي يجب أن يتوقف يا علاء؟

تمنى أن يقول حبنا.. ولكن قال:

- فعلنا يجب أن يتوقف.

فهو لا يريد أن يبادر بالتصريح بالحب ولو وهو يطلب منها إيقافه.. ويعلم أيضا أن الحب لا يمكن إيقافه بكلمة واحدة لذلك فضّل السكوت.

و أسرّ بالقول وإن لم تتوقف أفعالنا غير السويّة فلنوقفها غصبا ولو بإيقاف أعمارنا.. ولا يمكن أن نستمر في خطيئتنا الأولى وخطيئة حبنا إلى الأبد.

سألته وهي تعلم أنه لن يجيبها قائلة:

- وهل تُصحَّحُ الأخطاء بأخطاء أكبر منها يا علاء؟

سكتَتْ برهة كافية لاستراق نظرة واحدة إليه لتتأكد أنه لم يحرِّك شفتيه.. ثم أجابت نفسها دون أن تنبس ببنت شفة، أنا أعلم أنك فعلتَ هذا لأجلي لتريحني

وتريح نفسك لكنك أخطأت.. أنا لن أرتاح ببعدك أبدا وسأتعذب لذلك كما يعذِّبني قربك.

واصلت أناغيم حديث النفس ذلك قائلة إن كنتَ حاولتَ قتل نفسك لتكون عندي بمقال ساعد، فل تعلم أنك البطل الوحيد الذي أحببته، وإن كَلَّمتُكَ يوما عن حبي لهذا البطل الغابر فتلك إحدى حيلي لأقول أحبك.. دون أن أقولها، فقد كنتُ أتحدث عنك في صورته.

أنت يا علاء وحدك تعنيني.. وما تصريحي بحبي لبطل غابر إلا لأن ذلك لا يخجلني.. ولن يلومني على حبه أحد.. فما أحببت ساعد إلا ليكون جسرا لمشاعري اتجاهك.

نظرت إليه مرة أخرى وتأكدت أنه لم يقل شيئا.. فلغته التي يتقنها صامتة ويجب عليها أن تقرأ حروفها وحدها وتفك شفراتها من نظراته التي ذبلت، شرد ذهنه تماما في تلك اللحظة وغاب عنها بعد أن ألقى بجسده على سرير المرض وبقيت ساقه تتدلى من حافة السرير.. فمدت أناغيم يدها لترفعها حينها أخذ علاء نفسا عميقا وعمّ السكون.

المشهد الثاني: تكبير لغير الصلاة

اقتباس من النص

((تساءل وهو يراها تتخبط في رمقها الأخير هل كانت تلك الرصاصات الطائشة التي اخترقت جسدكِ عزفا كافٍ لكل هذا الرقص؟ أم أنّ الجنّ مسكِ وهو الذي يتخبط داخلك؟ ولماذا إذن لا يضع أحد ما مفتاح في يدكِ لتكُفي عن التخبط؟ كما يفعل الأهالي لعلاج مرضاهم الذين تتخبطهم الشياطين عند زيارة صلاّحها؟ أم أن الشياطين بريئة فالذنب ذنب أصحاب التكبيرات الأكثر طيشا)).

... غاص علاء في أعماقه باحثا عن ذاته يستجمع أشلاء من الذاكرة، علق بعضها على جسر سيدي مسيد وأخرى مع ثيابه بقيت أسفل الوادي واحتفظ ذهنه بِخِرَقٍ أكبر منها، غير التي تناثرت وسط أشجار البلوط في غابات كثيفة من جبال مدينة بجاية، وأخرى ضمّها بيت الطين الصغير ذي الغرفتين المحاذيتين والمغطى بالقرميد الأحمر والمحاط بالحشائش والأحراش.. وسط غابة كثيفة الأشجار كثيرة الذئاب بنوعيها.. في قرية صغيرة هجرها الجميع بحثا عن الأمن إلا أم **حمزة** وأبنائها منعهم شيء من التِوَلَة.

و ترك النازحون خلفهم هويتهم معلّقة على أشجار زيتونٍ حُبلى لا تجد مُريدا وقد تقاتلوا لأجل حبّاتها المتناثرة على الأرض حينا من الزمن، وبقيت الطاحونة تدور من غير زيت ولا زيتون، تركوا بساتينهم دون زارع ولا حاصد وقد فاض الحوض بمياهه، وإنّ له خريرا مضطربا لسيره في غير الجداول.

لا وجود لفلاح مهتم بالبحث عن النوبة أو نصيب مزرعته اليومي من مياه الحوض، وحتى ذلك (المزار أو الزاوية) كما يسميها الأهالي لم تجد أيضا زائر ولا من يقدم القرابين لصلاّحها.

لا يدري علاء لماذا يعود به الحنين لتلك الأيام في هذه اللحظة بالذات، أم أنه ليس الحنين بل شعوره بالألم لحظتها هو الذي يستجمع عليه كل آلامه القديمة والحديثة معا.. فيمتلئ داخله بكل شعور حزين لملمته إسفنجة الذاكرة ومد الشيطان يده ليعصرها في حلقه غصة لا تبتلع ليُحزنه بذلك.

نسي علاء الكثير من تلك الأحزان وابتلع مرارة الكثير منها غير أن دماء أمه ورقصتها الأخيرة من غير عرس تأبى النسيان، كان يومها سعيدا بعودة أخيه حمزة إلى البيت رغم مرض أمه، ربما مرضها ذاك هو سبب مجيء حمزة يومها بعد قرابة سنتين قضاهما في صفوف الجيش الجزائري لتأدية الخدمة الوطنية.. في عشرية كان الانتساب فيها للوطن وخدمته أشبه بالانتحار وجريمة يعاقب عليها الإرهابيون الذين ينتسبون لذات الوطن، ويحسبون أنهم بفعلهم ذاك يخدمونه أيضا ويحسنون صنعا.

اجتمعت أم حمزة بأبنائها الأربعة في مطبخ البيت المحاذي للغرفتين أمام (الكانون) أو الموقد الحجري يصطلون من ناره وينير لهيبها جدران المطبخ الصغير.. وكانت عيون إخوة حمزة تبدو مقمرة تتلألأ

من شدة الفرح.. بينما كانت الأم متعبة مشغولة الباب بل كانت تخفي عدم سعادتها بقدوم ابنها الغالي.

تكسر الأم قطع الخشب وترمي بها وسط الكانون، وتكسر الصمت أيضا بين الفينة الأخرى بأسئلة توجهها لحمزة على شاكلة "ما تلك بيمينك يا موسى".. لا تهمها إجابته أو قد تعرف الإجابة مسبقا وإنما كان يهمها أن تسترق نظرات حنونة إليه وهي تسمع صوته وتستشعر قربه وتُشعره في الوقت ذاته بحبها له وإن لم تقلها له من قبل ولا لأحد من أبنائها.

غلب النعاس الأطفال الصغار وناموا على لحاف لجذع شجرة البلوط، فطلبت الأم من حمزة أن يأخذهم إلى سريرهم الواحد، وتناولت هي دلو ماء أفرغته على نارٍ ألهبت الخشب فاستحال جمرا وبعد الماء رمادا تناثر على جنبات الموقد وارتفع ليعلوا شعرها ويُدمع عينيها، وعمّ الظلام الدامس، ونام الجميع.

مرت ساعات الليل الأولى هادئة ليزيل هدوءها طرق عنيف على الباب أرعب الجميع، قفز حمزة من سريره وسبقته أمه إلى الباب سائلة من الطارق، فأجابها الطارق برجله بدل لسانه وهو يرجّ الباب رجا فأنبأها فعله من هو.

و علمت حينها أم حمزة بأن ساعة النهاية قد حانت فانتابتها هيستيريا من الخوف على ابنها، فأخذت تقلب كفيها وهي تسير يمنة ويسرى باحثة في أركان البيت عن شيء ما، تمسح جدرانه لعلها تجد ملجأ أو مغارة أو مُدَّخَلا يأوي إليه وليدها، فلما أعجزها البحث عادت تقلِّب كفّيها وتضرب بهما فخذيها في هدوء خيبة وحزن.

فأخذ حمزة يهمس في أذنها كلمات كانت قد قالتها له يوما عن الشهادة في سبيل الله ليخفف من روعها.. وهو يسحب رأسها إليه بيده يقبلها وممسكا سلاحه باليد الأخرى وقد همّ بالخروج للقاء الأخ العدو مقبلا على الموت دون خوف، بينما تشبث الأطفال الصغار بلحافهم الوحيد كلٌ يشد طرفه وقد جثت الأم على ركبتيها.

واصل الإرهابيون دكّ باب المنزل الخشبي بأرجلهم لخلعه وقد علت تكبيراتهم، فانتابت حمزة لحظتها قشعريرة وخوف شديد أكبر من خوفه من الموت ذاته.. بل الخوف مما بعد الموت، وتهاطلت على ذهنه أسئلة عديدة.. فمن هم هؤلاء الذين يقولون الله أكبر؟ ومن نحن؟

و لم يكن الوقت مناسبا للسؤال بل للقتال، ولكن قولهم يستدعي التوقف والتساؤل فهم يقولون الله أكبر، فإن كانوا يقتلون بسم الله، فهل هم أحِباؤه ونحن أعداؤه؟

يتساءل حمزة وهو يلتفت إلى أمه باحثا عن الإجابة وباحثا عن ذاته، عن هويته عن الحق في تعابير وجهها، هو لا يريد أن يموت قبل أن يعرف لماذا يموت؟ ولأجل من؟ على حق هو أم الحق مع قابيل؟

- أمي يقولون الله أكبر..

ينطقها حمزة مرتبكا فترد عليه الأم بثقة:

- ارفع بها صوتك يا حمزة عاليا أنت أحق بها.

وضع حمزة إصبعه على الزناد وتقدم صوب الباب فسارعت الأم إليه لتمنعه من الخروج، فقد خطر ببالها فكرة يمكن أن ينجو بها ولدها، أشارت إليه أن يمتطي ظهرها ليصل سقف البيت ويقتلع بعض القرميد وأن يفر من السقف إلى الغابة وسط الأحراش الكثيفة والظلام الدامس سيكون غطاءه.

لم يكن أمام حمزة الكثير من الوقت للتفكير وهو يعلم أن الإرهابيين لم يأتوا في هذا الوقت إلا لقتله.. فسارع إلى اعتلاء السقف والأم تهمس في أذنه بأن الشجاعة لا تعني أن تقاتل دائما ولا بأس بالكر والفر.

قفز حمزة من سقف البيت باتجاه الغابة وتبعته الرصاصات الطائشة وحباتها الحقودة وعلت التكبيرات الأكثر طيشا.

خرجت الأم مسرعة تَتْبع صدى الرصاص وتلهج بالدعاء لولدها البكر متمنية أن لا تراه.. فهي ترجوا أن يكون قد استطاع الفرار، لم يطل الوقت حتى عم الهدوء وشعرت براحة ما وبالخوف على أطفالها الصغار وقد ابتعدت كثيرا عن البيت.. فعادت باكية لا تدري ماذا يمكنها أن تفعل أكثر.

و لكن الإرهابيين كانوا يعرفون ماذا عليهم فعله بعد أن فرَّ منهم الذي جاءوا لقتله.. ونفذت رصاصاتهم وهم يطاردون الذي يسمونه الطاغوت، ولكن تعطشهم للدماء لم ينفذ فهم الطواغيت حقا.

فعادوا للانتقام ممن ساعد حمزة على الفرار أو ممن أساء تربيته على حب الوطن، عادوا لقتل الأم قبل أن تدخل إلى بيتها لا يريدونها أن ترى أطفالها مرة أخرى.

ربما أرادوا بقتلها قتل حمزة أكثر من مرة أو ليرغموه بذلك على العودة ليقتلوه هو أيضا، أو أرادوا أن يقتلوا بقتلها أكثر من شخص واحد كتعويض على فرار حمزة منهم، الإرهابيون تستهويهم فكرة الواحد

بعشرة، وقَتْلُ أمٍ يمكن أن يكون بمثابة قتل عشرة أفراد مقابل فرد فرَّ منهم، أرادوا بقتلها إذن أن يقتلوا أولادها جميعا أو أن يقتلوا فيهم الرغبة في الحياة، أو ربما هدفهم من وراء قتلها هو الاعتداء على وطن بأكمله.

أطلّ الأطفال وقد سمعوا صراخ أمهم غير بعيد عن البيت ليروها تتخبط في بركة دمٍ تراقص روحها الصاعدة لملكوت السماء.

سارعت البنتين للارتماء على أمهما تضمانها إليهما كما لم تفعلا ذلك من قبل.. وهما يمرران يديهما على صدرها يستشعران حرارة جسدها قبل أن تبرد.. وتخرج تلك الحرارة مع الدماء الغزيرة التي كانت البنتين تحاولان عبثا منعها من الخروج.. وجسديهما يترنح على جسد أمهما.

و بقي الابن علاء ذو العشر سنوات ينظر إلى أمه دون حراك، متسائلا لماذا هذا الرقص والتمرغ في الأرض ولا أحد يعزف هنا؟ فهو لم يكن قادرا على استيعاب ما يراه.

هل كانت تلك الرصاصات عزفا كافٍ لكل هذا الرقص يا أماه؟ أم أنّ الجنّ مسكِ وهو الذي يتخبط داخلك؟ ولماذا إذن لا يضع أحد ما مفتاح في يدكِ لتكفي عن هذا التخبط؟ كما كان يفعل أهل القرية مع

مرضاهم الذين تتخبطهم الشياطين عند زيارة صلاّحها.

لم يفهم علاء كل الذي جرى أمامه إلا حين رأى بعض الشجعان من القرية المجاورة يقومون بدفن أمه صباح ذلك اليوم.. فليست مواجهة الإرهابيين فقط تعتبر شجاعة فحتى دفن من قتلوه يتطلب شجاعة ما.

بكى علاء وتذكر بكاء أمه من قبل على أخيه حمزة يوم استدعي لأداء الخدمة الوطنية، يومها مات بالنسبة إليها، لذلك ودّعته للمرة الأخيرة يومها قائلة:

- إياك أن تعود لهذا البيت مهما كان السبب ومع كل إجازة اذهب إلى أحد الأقرباء، وعند انتهاء خدمتك هاجر وسنبقى على اتصال فحياتك ستكون في خطر.

- أمي لماذا أذهب إذن لأداء هذه الخدمة إن كان ذهابي يعني موتي؟

- لأن بقاءك يا ولدي لا يعني نجاتك من الموت، فإن كان ولابد منه فعليك أن لا تموت خائنا للوطن.

***

طال سكون وسكوت علاء ومع ذلك لم ترحل أناغيم ولا ابتعدت عنه، ربما كانت مشغولة بمسح عرق جبينه وقد همّها منظر تلك الدموع التي لم تزل تسيل على وجنتيه أيضا مذ أغمض عينيه.

أرادت أن توقظه أكثر من مرة ولكن لم تملك الجرأة على ذلك، وحين انتابته رعشة شديدة أمسكت بتلابيبه فزعة وبكل قوتها لتوقف اضطراب جسده وهي تناديه مرارا علاء استيقظ.. علاء استيقظ.

وما زاده ذلك إلا تخبطا، فقامت تضرب صدره وتلطم خديه إشفاقا منها عليه، صارخة بأعلى صوتها أحبك.. أحبك يا علاء لماذا كل هذا الوجع؟ لماذا كل هذا التخبط؟ ولماذا قربك أشد إيلاما من بعدك؟

عمَّ صدى صرخات أناغيم جنبات المستشفى فسبق المتطفلون الأطباء إلى غرفة علاء يسترقون النظر، وكثر أعدادهم ومع ذلك بقيت أناغيم تصرخ.

صرخات ممزوجة بأنين بكائها مصرّحة بحبها لعلاء، دون أن تراعي أحدا أو تهتم لآخر، دونما خجل قالتها لأكثر من مرة ولم تنتبه لمن حولها بل لم تكترث لأمر أحد منهم، جهرت بالحب مرارا بصوت مسموع دونما خوفٍ أو حياء أو تلاعب بالألفاظ، وإن وجدت في نفسها بعد ذلك شيئا من العتاب واللوم.

حينها هدأ جسد علاء وجف عرقه وتوقفت عن السيل دموعه دون الحاجة للطبيب المداوي، فأناغيم هي ذاتها الداء والدواء، وكلمة أحبك كانت أقوى من كل ترياق، والجهر بها كان خيرا من كل مسكّن.

وربما علاء كان في حاجة إلى صدمة كهذه لإيقاف رعشته ولو لبعض الوقت.

أحبك كانت بمثابة المفتاح في يد الممسوس، وكانت أناغيم هي من مسه مع الوطن حبا، فهل إلى شفاء من هكذا مس؟

فتح عينيه ورفع رأسه عن الوسادة قليلا ليمعن النظر في عينها كما لم يملك الجرأة يوما على فعل ذلك.. فاليوم الأمر مختلف، هو يملك تصريحا بالمكثر على شواطئ عيونها السود ما شاء أن يمكث، وكيف لا وقد قالت بملأ فيها أحبك؟ وكفى بتصريحها بالحب تذكرة لدخول أسوار عيونها.

أخذ نفسا عميقا مع تسارع نبضات قلبه وقد همَّ أن يرد عليها بمثل قولها لفظا وجهرا، لكنه هاب أولئك المتطفلين الذين أحاطوا بهما من كل جانب.. خالهم الذين قتلوا ساعد وخشي أن تلقى أناغيم مصير نجمة إن هو صرّح بحبها، فاكتفى بالقول خفية أنا أيضا يا أناغيم أبادلك الشعور ذاته.. دون أن يجهر لها بالحب.

لم تلمه أناغيم على ذلك وقامت تسأله لتخرجه مما هو فيه.

- علاء أين ذهبت؟ هل أنت بخير؟

فأجابها:

- "أنا بخير يا أناغيم كل ما في الأمر أني أموت في الماضي قليلا"

وبدل أن يصرّح لها بالحب ترك رأسه يهوي ببطء حتى استقر على الوسادة وأغمض عينيه على حَوَرِ عينيها، لا يريد أن يرى شيئا آخر.

تساءل في سرّه هل قالت أناغيم حقا أحبك؟ رغم أنه كان موقنا أنها قالتها جهرا بل قالت أحبك يا علاء بالذات وليس أحبك فقط، ولكنه كان يتساءل لشعوره بأنه فات الأوان على الحب وما عاد التصريح به مجديا؟

وكلمة الحب بدت لعلاء لحظتها غريبة رغم حلاوتها على لسان أناغيم، ومع ذلك بقيت في ذهنه غريبة فهو لم يسمع أحدا من قبل يجهر له بالحب.

أمسك علاء رأسه بكلتا يديه يقلّب أحداث ماضيه باحثا عن كلمات حب مشابهة، فردّته كلمة حبها الصريحة هذه لغيبوبة كانت قد أخرجته لتوّه منها، وذكّرته بأمه وهي تقول كلمة حب لأخيه حمزة مرة واحدة في حياتها.. يوم انفجر فيه لغم وزارته في المستشفى، ولم يكن حمزة في تلك اللحظة يسمعها.

فهل فات الأوان أيّتها الأم؟ وهل فات الأوان يا أناغيم؟

لما لم تقوليها له أيّتها الأم في الوقت المناسب؟ لما لم تقوليها لابنك علاء أيضا؟ ولا هو قالها لك، من حذفها من معجم الكلمات؟ ومن أخفى ذكرها؟ من ظلمها؟ وكيف جار الحياء على الحب واعتدى.

علاء كان يعرف أنكِ تحبينه أيتها الأم، كان يستشعر ذلك دائما مع كل قطعة (كسرة) تنتزعينها من قسمك وتضعينها في محفظته وهو ذاهب للدراسة، تُؤثرينه بكوب الحليب الأخير فتجوعين ليشبع، وربما كُنتِ أيضا تشبعين حين ترين أبناءك جميعا قد شبعوا.

أو ربما حبها لابنها علاء كان كصخور تمسكها بإحكام بيديها فاقدتي النعومة.. وترمي بها صوب الوادي في صباحات بجاية الشتوية المظلمة كثيفة الضباب، لترغم قطعان الخنازير على إفساح الطريق له.. ليعبر الوادي صوب مدرسته، وتعود هي للرعي وللسقي ولتقطيع الخشب وللاعتناء بأشجار الزيتون وببستانها الصغير.

لم يكن علاء يفهم لغة حبها هذه، ولا كان يفهم لما كانت تستقبله باللطم بدل الضم حين يعود متأخرا من المدرسة مبلل الثياب مرتعب البدن.. وقد مرّ لتوّه على وادي (البارد) المخيف، لم يكن يعرف الحب إلا حين

كان يمرض، وقتها فقط كانت تقول له كلمات تشبه كلمات الحب.. أو تترجم على أنها أحبك.

لغة حبها كانت سليمة ولكن حروفها عنيفة قليلا عنف الحياء في مجتمعات محافظة، وربما كان لا بد للحب أن يمارس بتلك الطريقة أثناء الحرب، وأن يتم التصريح به خفية ما بقي الخوف في النفوس بعد الحرب.

ورغم كل شيء كان علاء يعذر أمه، فالمرأة حين تدفعها الحياة لتصبح رجلا.. تصير خليطا غير متجانس بمعالم غير واضحة الأنوثة مشوّهة الرجولة، بل الطبيعة والحياة كلها كانت مشوّهة عنيفة في تلك الجبال رغم مياهها الصافية وهوائها العليل، لحظتها أخذ علاء نفسا عميقا كأنه لا يزال يسكن تلك الجبال كما تسكنه وابتلع ريقه فجاءه صوت أناغيم مجددا.

***

- حبيبي هل تريد مني شيئا؟

و لكن هذه المرة قالت حبيبي بصوت خافت كأنها فقدت الحماسة الأولى للتصريح بالحب، أو كأن شيئا ما في ذلك التصريح غير مستقيم، أو كأنها بدأت تعود إلى رشدها بعد أن ساقها جنون الحب إلى التصريح به أمام

الجميع.. وهي تعلم أنها ليست لعلاء بل لرجل آخر، وعلاء يعرف ما خطبها وما يجول في خاطرها.

هو لا يريد من الدنيا كلها غيرها، ولكنه الآن لا يدري هل يريدها قريبة منه أم بعيدة عنه؟ وأيهما أنسب لهما؟ وهل يعذرها على صمتها كما عذر أمه؟ أم عليه أن يلومها على بوحها المتأخر بحبها؟ أو ربما عليه أن يلوم ذاته لوحده على طول صمته؟

لذلك كله أجابها بقوله:

- لا أريد شيئا يا أناغيم..

وخفض صوته وهو يقول بل لا أريدك أنت أيضا الآن، حينها دخل الطبيب النفسي وبالكاد استطاع أن يدخل الغرفة من كثرة المتطفلين، وحين توسطها صرخ في وجه الحاضرين:

- فَلْ يخرج الجميع ..

صرخات وصرخات لم تقل حدة عن حدة تصريح أناغيم بالحب.

لا يدري علاء هل الطبيب كان غاضبا لأجله؟ أم لأجل مئزره الذي تمزقت أزراره وسط الزحام وهو يحاول الدخول للغرفة؟ كما لم يستطع علاء أيضا أن يتأكد من أن صرخات أناغيم كانت ممزوجة بالإخلاص له في الحب.

- فل يخرج الجميع المريض لا يحتاج منكم شيئا يحتاج فترة من الراحة فقط.

و لم يكتف هذا الطبيب بالقول، بل قام يدفع الجميع إلى خارج الغرفة، وربما الخشونة في المعاملة مع أناس لفترة طويلة جعلت الكلام معهم بعدها غير مجدٍ لوحده، ومنطق الحوار معهم عقيما نوعا ما.

عاد الطبيب بعد أن أخرج الجميع لينزع مئزره ويتركه مع بعض أغراضه على الطاولة.. فانتبه إلى أن أناغيم لا تزال إلى جانب علاء لم تغادر بعد، حينها سألها وعلامات الغضب بادية على وجهه.. ودون مقدمات أو مجاملات، ودون أن يحاول معرفة من تكون قال:

- وأنت لما لم تغادري بعد؟

لم تملك أناغيم حينها جوابا على سؤاله هذا، ولم تعرف هل عليها المغادرة حقا أم لا؟ نظرت إلى علاء لعلّه يخلِّصها أو لعلّه يقول أريدها إلى جانبي لكنه لم يقل شيئا، ربما هو أيضا يفضل أن تكون بعيدة عنه في هذه اللحظة بالذات؟

لم يطل الوقت قبل أن يسألها الطبيب مجددا:

- هل لك علاقة بالمريض سيدتي؟

و كان سؤاله هذا محرجا فلا علاقة لها به غير أنها تحبه ولا وثائق ثبوتية للحب، وما كان بوسعها إلا أن تغادر مكرهة في حرج، ولا كانت تملك الجرأة لتصرّح مرة أخرى بالحب وتجهر به وهي تعلم أن الطبيب زميلها في العمل بل صديق حليلها، لذلك غادرت مكرهة كما تزوجت قبل ذلك مكرهة.

وحتى الطبيب غادر هو الآخر، ودون أن يكلِّم علاء أغلق خلفه باب الحجرة بهدوء وقد تمالك نفسه بعض الشيء.

التفت علاء يمينا وشملا فوجد نفسه منفردا.. لا أحد في الغرفة غير سريره وطاولة، وكرسيان، ومستلزمات طبية، تركها الطبيب مع بعض أغراضه.. ووصفات طبية، وأوراق بيضاء تحتاج إلى حبر لتستحيل دواء.

وقلم كان منظره مستفزا ومغرٍ أو كأنه يستنجد بعلاء "فلم يعد القلم يحب المكث في أيدي الجهّال كما البندقية عافت المجرمين والسلطة الخونة في وطني، ربما القلم أصبح يشعر بمسؤوليته في إيجاد وطن يصلح للحب وللعيش الكريم"، عدى ذلك لا شيء مهم في تلك الغرفة أثاث وأثاث فقط.. وستائر تدلت من

على النافدة لا يختلف لونها عن لون الغرفة الذي كان أبيضا ومنفردا أيضا.

و كلما عاود الالتفات مرة.. و مرة أخرى لم يكن يثير انتباهه غير ذلك القلم، لمعانه رغم لونه الأسود كان بمثابة رغبته غير المعلنة في الخروج من الغطاء ليقول شيئا ما في تلك الغرفة البيضاء ذي العتمة الخفيفة.. وليرقص على الورق كما يحلو للقلم أن يفعل ذلك.

ربما صادقون هم الذين قالوا (محلى الشطيح في الظلمة) وإن كانوا يعنون ضدها، فقد تحتاج لشيء من الرقص الخفي في العتمة لتشفى من فوبيا الرقص العلني، أو قد تضطر لفعل ذلك إن كان رقصك على ضوء الشمس يزعج أحدهم.

القلم كان يتربص بعلاء ومنظره كان يزداد استفزازا وإغراءً له أو هكذا بدا له، ولكن لماذا لم يستفزّه القلم قبل اليوم؟ لماذا يشعر بحاجته الماسة لهذا الشيء ولضمه بأصابعه بالذات؟ بدا له لحظتها أنه كائن يتنس وبه يتربص، وأن كلاً منهما يحتاج الآخر.

ربما لأنه في هذه اللحظة بالذات شعر أنه "أصبح جائعاً ليكتب شيئاً ما، شيئا لا يمكن أن يكتب مع الجرح الأول" فالموجة الواحدة لا تزيل الحواجز لا بد أن

تتوالى الموجات "لا بد أن تنتظر حتى تشعر بالألم الكافي الذي يجعلك تكتب"، أو قادرا على كتابة شيءٍ ما يخفف عنك.

أو كتابة شيء مختلف كحروف تلقي بها على أوراق طبيب فتصبح وصفات وبعدها أدوية لجروح متعددة، شيئا ما يرفعك ويتجاوز بك السحب إلى السماء فالقلم هو "البُرج الوحيد القادر على الوصول إليها" ويمكن أن يوصلك معه.

فقام علاء من سريره على عجل باتجاه القلم وتناوله مسرعا بكلتا يديه.. ضمه إليه بكل أصابعه وبكل لهفة وشوق كبيرين يوازي في جنونهما مذاق الضمة الأولى لحبيب طال انتظاره.. أو يشبه تلك الضمة.

ولا بأس إن تعرّفت على ذاتك من خلال القلم قبل أن يعرفها هو أو تعرفها هي، فعلى كل حال القلم يشبه علاء في صمته وإن اختلف عنه في قدرته على البوح، فالقلم الأخرس يستطيع قول كل شيء دون حاجته للكلام.

لا يدري علاء لحظتها وهو على سريره بالمستشفى كيف أخذ يرتل شيئا من تراتيل المالوف بصوت خافت لم يسمعه هو؟ بالكاد خرجت الحروف معه من مخارجها، ربما أشلاء الكمنجة المبعثرة أمامه هي التي

أثارت فيه تلك الرغبة وهو ينظر إليها وإلى القلم في يده؟ وربما القلم أيضا كانت لديه رغبة سرية ما في كتابة تلك التراتيل الخفية؟

"وأنا بالبغية تقوى غرامي
أهلكني يا سابغ الشفر
يا من يفهم ذا الجواب يصنّت ليا
نعلمكم ما يصير على كحل الحاجب
نعلمكم قصتي وسبايب ذا النفية
الله يا سود الريامّي"

فأخذ القلم ودون إذن يكتب ويُسيل حبره في سيره المضطرب على قصاصات ورق أُعدت لتكون وصفات لمرضى آخرين.. قَدَرُها أن يكتبها طبيب مريض.

لم يبدأ الكتابة من اليمين ولا من أعلى القصاصات البكر بل كتب على ظهر الثيب منها شمالا، ربّاه تلك الثيِّبُ التي أعيته حين كان ينتقل بين جنباتها ليحظى بتمام اللمس عساه يلملم شتاته.

سار القلم على الورق كسيارة مجنونة يقودها محتال، تسير في الطريق أحيانا وعلى الرصيف أحيانا

أخرى وفي كل الاتجاهات، سائقها لا يعرف أين يذهب أو لم يصحُ بعدُ من سكرته، أو ربما مشكلته أنه حمل قلما ليكتب دون رخصة قيادة.

كتب أشياء وأشياء حتى بدأ القلم يسير في يده على طريق أكثر استقامة وأقل اضطرابا.. وصريره على الورق أقل إزعاجا، حينها رفع علاء قلمه باحثا عن كلمات أخرى أكثر رشاقة تصلح لتُكتب بإذن على ورق أبيض بكرٍ ولودٍ.. لعل تلك الكلمات تلملم حطاما من زجاج مشاعره.

لم يُرد أن يكتب عن أيام الحرب "تلك التجارة التي يقتات منها الملوك" وكانت نتيجتها خلق اللصوص، هو لا يذكر منها إلا أشياء قليلا شديدة القسوة لحداثة سنه في تلك الأيام، ولأن الأيام التي تلي تلك الحرب بالنسبة إليه كانت أسوء من الحرب ذاتها.

من قال أن الأيام التي تلي الحرب أقل قساوة فقد أخطأ "فالخوف من الحرب والخوف بعدها أسوأ من الحرب ذاتها" والعيش بعاهة نفسية بعد الحرب أسوء من الموت في الحرب.

في الحرب قد تموت مرة واحدة ولكن بعد الحرب ستموت دائما، إلا إذا كنت واحدا من الذين قضوا أيام

العشرية السوداء كعطلة مدفوعة الأجر يتبضّعون في شارع الشانزليزيه.

انتهت الحرب ونامت الفتنة ولم تترك بيتا جزائري دون قتيل أو فقيد أو مصاب مريض، حين انتهت وأتمت حججها العشر السود كانت الحروب النفسية تتأجج داخل كل جزائري عاش أيام الحرب.

انتهت الحرب وتركت الشباب بعواطف مشوّهة ودون علاج، فالعلاج بعد الحرب كان للأجساد دون النفوس، وسارع الجميع لترميم البنايات وتُرك الإنسان دون ترميم يعيد إليه ذاته وإنسانيته وثقته بنفسه.

حتى (التويزة) ساعدت في بناء ما خرّبته الحرب من عمارة، ولكن لم يفكر الأهالي بتويزة لترميم الإنسان، ولا أحد كان يَقبل أن يعالج في مصحات نفسية على قِلّتها، بل المجتمع العنيد المكابر كله كان يرفض ذلك ويرفض وصمات العار.

لا يريد علاء أن يواصل التفكير في ذلك، يريد أن يتجاوز الأيام والسنوات بحثا عن أشياء أقل حزنا من أيام الحرب وما حدث فيها، أو ربما القلم هو من كان يسوقه ليكتب شيئا آخر مختلف، يمكن أين يكون مزيجا بين الحزن الغامر وزيف سعادة الرقص، في أيام تلت الحرب وعلّمت الناس كيف يرقصون رغم أحزانهم.

المشهد الثالث: الخمرة الأولى

اقتباس من النص

((ربما كان مخطئ حين أمعن النظر إليها.. ولكن كان لا بد من ذلك، فلا مفر من بداية حكاية القدر عندما تتسارع نبضات قلبك دون حاجة منك إلى الركض)).

قُم أيها القلم وانزع عنك غطاءك لا تصدق مقولة "عنقر طربوشك يا بّا" فمن دون ذلك الغطاء ومن دون زيف المسلمات الكاذبة أنت أقدر على البوح.

قم أيها القلم "فأنا مشتت الذهن لا أريد أن أسبح لوحدي أخشى الغرق" أريد منك أن تخط معي أحرف رواية للحزن، لكن لا أريدها كتابة من البداية إلى النهاية "اجعلها إن شئت شيئا أو جسرا بين الكتابة والموسيقى" ثم تمايل على ذلك الجسر بعدها كلما راقصتك أصابع يدي طربا، لا يهمني من أين تبدأ من البداية أم من النهاية ولا يهمني إن لم تكن البداية رقصا لا بأس الآن بالكلمات.

كلمات تشبه صفاتُ أحرفها لحن أغنية عيد الميلاد التي لم تُغنى بعد لعلاء ولا هو اهتم يوما لأمرها، ولكنه شعر أنه يريد أن يسمعها بإلحاح يوم أكمل ثمانية عشر سنة.

ربما لأنه صادف ذلك يوم التحاقه بثانوية أحمد رضا حوحو للدراسة في الصف الأخير ما قبل الجامعة، وذلك بعد استئجار أهله لسكن قبل فترة وجيزة في حي الأمير أو (الفوبور) أحد أحياء قسنطينة العتيقة، وقد سكنوا قبل ذلك على أطراف مدينة

قسنطينة باحثين عن الأمن الذي افتقدوه في جبال مدينة بجاية زمن العشرية السوداء.

أو ربما رغبته يومها في سماع أغنية ما، مردها نبضات قلبه التي تسارعت بشدة لسبب آخر غير الخوف من الإرهابيين.

وفي ذاك الصباح ذهب للدراسة مع بعض أقرانه من أبناء الجيران، وما كاد يتجاوز عتبات البيت إلا قليلا.. وهو يسير جنب مقبرة اليهود حتى بادرته (أمّا مريم) بتحيّة صباحية وقد كانت بعدها تفعل ذلك دائما، حيّاها بدوره وهو يتجه صوب تمثال الجنية أو إلهة الانتصار.. فرمقته يومها بنظرة غريبة رغم سكون جسدها.

علاء لم يفهم سرَّ تلك النظرة وهاب ذلك التمثال.. فنزل السلم الضيق المؤدي لجسر سيدي مسيد مسرعا، وكانت هيبته أكبر وقدماه تطآنهِ لأول مرة وأوجس في نفسه خيفة، فقد كان لحظتها ثقيل عليه أو ربما الجسر هو الذي كان خفيفا كوتر من أوتار كمنجة قديمة، فكان سيره عليه لحظتها مضطربا كسير قوس في يد عازف مبتدئ على أوتار نفس الآلة.

كانت قدماه ترقصان رقصا شبابيا سريعا مضطربا.. وكان الجسر كشيخ مالوف قسنطيني

استوى على كرسيه الكلسي.. وضم كمنجته بعد أن جعلها في حجره ليبدأ بهدوء عزف نوبة طويلة، تلتها أربع وعشرين نوبة.. بعدد ساعات اليوم وكل يوم، وكان النشاز وعدم الانسجام واضحا بين سير علاء وسكون ذلك الجسر.

واصل علاء سيره عليه ولم يتجاوز بصره مواضع خطوات قدميه متظاهرا بعدم الخوف أو الملل من النوبات الطويلة، وكيف لا يخاف وهو لم يكن في حاجة ليرفع رأسه ليرى الطيور، كان يكفي النظر إلى الأسفل ليراها تحلق في عليائها أسفل منه.

و ما إن تجاوز هذا الجسر ويمّم وجهه شمالا حتى بدا له سرح عظيم كقلعة بيضاء.. تزينت بقرميد أحمر مصفوف انساب على حواف سطحها.. وبنوافذ وشرفات زرقاء أبانت على أنها بناية بألوان فرنسية يرفرف فوقها علم جزائري.

اقترب من بابها العالي فإذا به باب خشبي عظيم كأبواب حصن منيع استعد أهله للغارات والحروب.. يليه باب أعظم وأكثر صلابة كسد من حديد، لكن متانة الباب لم تمنع الخوف من أن يلج هذا الحصن.. فنوافذه الزجاجية مصبوغة بالأبيض مغطاة بشبابيك حديدية.

وهذا حال كل قسنطينة، وحال كل أبوابها وأبواب بيوتها بعد العشرية السوداء التي جعلت الأهالي يستبدلون (الكلاّت).. التي تفتح بمجرد دفعها بالأبواب الحديدية ذات الأقفال.

دخل علاء هذا الحصن أو هذه المؤسسة التربوية.. وتجاوز ممرا يشبه نفقا قاده لباحتها المغطاة بالرخام الأبيض.. الشبيهة بوسط الدار للبيوت الشرقية والتي اختارت الخضرة زينة لها وبين باحة وأخرى سراديب تقودك حيث يبدأ تاريخ فرنسي في مدينة عربية.

امتلأت باحة الثانوية بالطلبة والطالبات.. واصطف الجميع في صفوف مرتصفه بعد الهرج الذي صاحب الدخول إلى المؤسسة.. رُفعت الرؤوس وبرزت الصدور والأبصار معلقة حيث علقت الرّاية على الحبل.. لتبدأ في الارتفاع يشيّعها إلى العلياء نشيد وطني مسجل على المذياع.

أقسم المذياع وحده بأغلظ الأيمان.. بالنازلات الماحقات والدماء الزكيات الطاهرات وبربهن جميعا أن تحيا الجزائر، وشهد الطلبة على ذلك جميعا.. دون أن يقسموا كما أقسم المذياع.

توجه بعدها الجميع إلى الأقسام حسب القوائم المعدة سلفا.. ليختار كل واحد مقعده.. جلس علاء في آخر

الصف الثالث بعيدا قدر الإمكان عن بقية زملائه مرسلا نظرات سريعة يتفقد المكان.

جدرانه البيضاء.. أرضيته الرخامية النظيفة والقديمة معا.. طاولاته التي جعلت رسائل حب خفية لا تحمل عنوانا ولا تُظهر من المرسل ولا المرسل إليه، كأنها مشاعر معروضة للفرجة.. مشاعر جريئة أكثر ممن خطّها فهي تستطيع أن تواجه الجميع عارية كما هي.

لم يكن علاء يعرف لما كان يومها متضايقا؟ هل من الاختلاط الذي لم يعهده من قبل؟ أم كان خائفا من أنه قد لا ينجح في امتحان الشجرة التي يجب أن لا تُؤكل ثمارها.. وهو يراها أكثر من شجرة.. أكثر من لون.. أكثر من رائحة وبإغراء واحد؟

غير ذلك لا شيء يثير الانتباه، كل شيء كان عادي.. وحتى الموضوع الافتتاحي كان مألوفا.. فالجميع يعلم مسبقا أنه سيكون عن نعمة الأمن والسلم، يجب أن ترسّخ معانيهما في أذهان الجيل الجديد لسنوات تعادل سنوات الجمر، وربما إلى درجة قد يُخيّل لأفراد هذا الجيل أن السلم يعني الاستسلام.

"و إن جنحوا للسلم فاجنح لها" يسأل الأستاذ طلبته عن معانيها السامية.. وإذا بطرق عجول على باب

القسم يشغل أذهان الطلبة عن التفكير في جوابٍ لسؤال الأستاذ.. وقد أثارت رقّة القرع انتباههم.

يُفتح الباب على قول الأستاذ تفضل، بدا لعلاء حينها خيالٌ لفتاة جميلة عند الباب.. فلم يُرد أن يركِّز نظره عليها فشيء من التدين والالتزام يمنعانه، وإذا بصوتها يأتيه منفردا ومستفزا.. فقد شعر علاء أن صوتها جاء إليه وحده ليطرق سمعه بل ليلج دون استئذان.

و لم تكن تلك الفتات لحظتها تُحدِّثه، كانت تستأذن الأستاذ في الدخول وأنفاسها تتسارع.. وبين كل كلمة وأخرى نفس وابتلاع ريق وهي تقول:

- معليش.. تسمحلي.. ندخل يا أستاذ.

لم يكن في كلامها شيء مهم.. هي فقط تستأذن للدخول لتأخرها عن الدرس.. ولكن في صوتها الرخيمِ الأغن جرس.. أرغم علاء على تَلقُّف نوتات ذلك الصوت والتفرغ لذلك لا لشيء آخر.

تساءل سرا عن سرِ الجرس في صوتها، هل هو صفير عصافير في حرفي الصاد والسين العربيين ؟أم الصفير في التاء (تس) القسنطينة؟ أم انفراد لسانها بسر ما ؟

علاء يريد أن يعرف ما هذا السر.. ومع ذلك لا يزال يقاوم نفسه.. لا يريد أن ينظر إليها وإن أرغمه صوتها على استراق نصف نظرة للخيال، يجيبها الأستاذ:

- يمكنكِ الدخول.. ولكن ما اسمك بنيتي؟

- اسمي أناغيم.

و جاء صوتها ثانية.. ولكن هذه المرة موافقا لاسمها.. كل من الاسم والصوت يحدث جرسا ما، فصار لعلاء أكثر من سبب ملحّ للنظر إليها ولا يمكنه أن يقاوم أكثر من رغبة اشتعلت لديه في ذلك.

اكتفى بنصف نظرة أخرى وهو يتساءل لما لم تسمى أنغام وسميت أناغيم؟ أليس كلاهما جمع لنغم.. فقد بدا له الاسم غريبا، هل أُريد له أن يكون أكثر من مجرد اسم تتناغم حروفه وتتراقص على أكثر من غنةٍ.. قبل أن تفعل ذلك مفاصل من سميت به.

و قبل أن يجد جواب لسرَّيْ اسمها وصوتها.. رصدت أذنيه قرعا خفيفا لنعليها وهي تسير باتجاه مقعد أخير في الصف الثاني.

ولكن هل ذلك القرع الخفيف مصدره القلب أم الأرض التي ضربتها برجليها؟ أليست مذنبة من تفعل

ذلك؟ أم أنها ما ضربت الأرض ولكن رجّت خلخالها القسنطيني من غير ذنب وهي تسير.. والرَّجُ برجليها؟

ما عادت المقاومة مجدية لا بد من الاستسلام.. ولا بد من النظر إليها.. فبالاستسلام فقط يمكن أن يجيب علاء على كل تلك التساؤلات التي دارت بخلده حولها قبل أن يراها.

ربما الذين علّموا الأجيال كيف تستسلم بدعوى السلم محقون.. ففي الاستسلام لذة ما وإن كانت زائلة، واستسلم علاء لأكثر من إغراء.. وفعل الذي تحاشاه من البداية.

ربما كان مخطئ حين أمعن النظر إليها.. ولكن كان لا بد من ذلك، فلا مفر من بداية حكاية القدر عندما تتسارع نبضات قلبك دون حاجة منك إلى الركض.

قد يكون القدر ذاته هو الذي جعلها تنظر إليه في اللحظة ذاتها التي نظر فيها إليها.. رفعا رأسيهما وتقاطعت النظرات واشتبكت السهام للمرة الأول.

هل ابتسمت له وبادلها الابتسامة؟ أم أنها خُلقت مبتسمة؟ هل قالت عيونها شيئا ما؟ أم أن العيون لا تقول شيئا؟

هل هي امرأة أم مدينة في امرأة وزيادة؟ فهو حين رآها للوهلة الأولى حنّ لبجاية وأيامها.. وتفتحت له

ينابيعها الصافية، وهابها في الوقت ذاته إذ تراءت له فيها جسور قسنطينة الشامخات.

و بين الهيبة والحنين لشيء ما ظل متماسكا يبادلها النظرات، وربما لم تكن نظرات بل نظرة واحدة فقط، نظرة بعمر آلاف النظرات.. وقد تستحيل النظرة الواحدة عمرا كاملا من النظرات.. كما استحالت مشيتها رقصا، لا يدري على أي أنغام آلة كانت تمشي وترقص.. على آلة إيقاعية أم وترية.

هل حقا حدث هذا؟ يتساءل علاء وهو يُشيح بوجهه عنها لطغيان الهيبة على الحنين في نفسه، ثم يتعاظم الحنين عنده فجأة في لحظة واحدة.. فيدفعه بقوة أكبر ليتأملها مرتبكا للمرة الأخيرة قبل أن تجلس، أو ربما هو الذي كان يتدافع لذلك الحنين؟

لماذا حدث معه هذا؟ ولماذا راحت عيناه تتسكعان في ملامح وجهها دون أن يميّز شيئا منها؟ هو لم يفعل هذا من قبل مع أحد.. فكيف يفعلها مع امرأة يراها للمرة الأولى؟

من أين تولد ذلك التمرد.. من أين جاءت الجرأة والرغبة الملحتين في تلك اللحظة بالذات، كأن له حقا شرعيا في النظر إليها ومن أعطاه ذلك الحق؟

هل هو سحر عينيها ؟ "أم أن عينيها لم يحملا سحرا.. بل دعوة سرية لشيء ما.. وهي تبادله أنصاف النظرات ونظرات أخرى صريحة وأكثر جرأة، دعوة ممزوجة بغرق لذيذ محبب، وربما كانتا تعتذران له مسبقا عن كل الذي سيحل به" دون أن ينتبه إلى ذلك.

كسمكة خرقاء لم ترى خيط الصنارة رغم صفاء المياه.. فقد غرّها الطعم الشهي والابتسامات الساحرة.

ربما هو قدر السمكة.. أو قدر الصياد؟ أو ربما هو قدرهما معا؟ فالصياد في لعبة الحب يتبادل الأدوار مع السمكة.. فكلا هما يصطاد الآخر ويكون ضحية في آن واحدة.. وبقصد أو دون قصد يغرقان في النهاية معا حبا حتى الموت.

وما السنارة وطعمها إلا أسباب للقرب لا أكثر، لا يدري لما خطر بباله لحظتها ذلك المثل الشعبي الساذج "يا الحوته قابليني ونقابلك أنتي ما تكليني وأنا ما ناكلك".

ربما لأن أناغيم استوت جالسة على كرسيٍ مقابل لكرسيه في صف آخر، وما عاد درس الأمن يعنيه.. هو يفكر فقط في أمنه الداخلي الذي فقده، فلم يسبق لامرأة أن أرغمته على النظر إليها.

دون أن يعرف شيئا عن تفاصيل جسدها ولا قسمات وجهها، ربما لأن كل الذي حدث هو نظرة واحدة فقط، ولم يستطع أن يعيد الكرة مرة أخرى وهي جالسة عن يمينه.

لم يتحرك من مكانه.. لا يدري كيف انتهى الدرس.. ولا كيف غادر الجميع إلا هو، خرج بعدها وهو يتساءل.. هل نظرت إليه قبل أن تغادر أم لا؟ هل قرأت عليه أي تعويذة حب صامته.. أو أي شيء من (التِّوَلَة)؟ أم أنه وحده من كان يقرأ ويردد خفية شيئا من تراتيل المالوف.. لا يدري متى سمعها.

"وانا بالبغية تقوى غرامـي أهلكني يا سابغ الشفر
وهدف ليا فكر كالبحـر جـاني بالموجات دافع
بحر الحب غليلي طامــي الله يا سـود الريامـي"

تراتيل وتراتيل تتبع لحن جسدها وهي تغادر.. فقد أغراه ذلك اللحن على ترتيل شيء من المالوف ليشيعها به، ولكن هل تناسب تلك التراتيل الشعبية البطيئة.. خفتها وخفة اهتزازات خلخالها وخفة إيقاعات سيرها؟

أم أنها تناسب سير القوس على أوتار كمنجة تسرع مرة وتبطئ أخرى؟ وهل أهداه أستاذه في الموسيقى رافائيل كمنجة يناسب سير قوسها سير أناغيم.. ليفسد عليه دينه أم ليتم له الجوقة؟

***

يذكر علاء جيدا ذاك اليوم الذي دخل فيه لحصة الموسيقى.. عند هذا الأستاذ العربي المسحي.. الذي استعانت به وبغيره الجزائر لتكوين أبنائها غداة الاستقلال من الاستحمار الفرنسي.. قبل أن يغادروا جميعا بعد أن صار للجزائر فائض كفاءات وطنية.. تصدرهم ليستفيد منهم أعداء الوطن.. بل الاستحمار ذاته.

وجد الأستاذ رافائيل ينتظره عند باب القسم ليهنئه على إتمامه لحفظ القرآن الكريم، وتعجّب حين أخرجه ذلك الأستاذ من بين زملائه ليمنحه هدية على صنيعه.. وازداد تعجبا وهو يرى تلك الهدية الفاتنة التي منحه إياها.

كانت الكمنجة أعز ما يملكه ذلك الأستاذ.. لا تفارقه أبدا يخالها الجميع ابنته المدللة، ولكن وهل تليق هدية لشاب حفظ القرآن؟ وليس يجتمع قرآن وكمان.

و في القرآن من التغنّي ما يكفي دندنة وفي كل آياته أكثر من حلاوة.. وتجوّده حناجرٌ كالمزامير تُغْنِي عن كل آلة، ثم أليس الحرف العربي إيقاع سينفوني لوحده فلماذا إذن هذه الآلة؟

وكيف سيكون رد فعل والده وأخيه إن رأوه يحملها؟ وماذا سيقول شيخه الذي علّمه آخر أجزاء القرآن إن رآه يعبث بأوتارها؟

لم يقل علاء أي كلمة.. لم يقل للأستاذ أنه سعيد بهديته، ولا قال أنه لا يريدها إطلاقا.. لم يجد غير ابتسامة تخرجه من حرج ذلك الموقف وتكفيه عناء المواجهة.

ابتسامة واحدة تظهر كل معاني السعادة الزائفة والامتنان أيضا وتخفي الدهشة، فهو غير مستوعب كيف يمكن للهدية أن تستحيل مصيبة.. أو فخا من الحب المنحرف؟

لا شيء كان يشفع للأستاذ عند علاء على ذنب الهدية، حتى دروس الشريعة الإسلامية التي قدمها هذا الأستاذ يوما ما بهذه الثانوية.

و ربما الأستاذ لا يحتاج شفاعة.. هو غير مذنب.. أراد فقط قبل أن يغادر الجزائر أن يترك شيئا منه في أرض أحبها "و تاه فيها الجلال.. يا بسمة الرب".

و لم يجد الأستاذ خيرا من كمنجة.. قوسٍ.. وصوت عذب.

حمل هديته مضطربا وهمّ بالعودة إلى مقعده.. وأناغيم تتطاول في جلوسها جرأة لتراه، وهو واقف يتضاءل حشمة لكي لا تراه.. لكي لا تراه يحمل آلة تُشعره بالخيانة.

لم يستطع أن ينظر إليها وهو يرى أنه يفعل شيئا غير لائق بحمله لتلك الهدية.. ولم يتنبه إلى أن النظر يمكن أن يكون غيرُ لائق أيضا.

ربما بعد النظرة الأولى يصبح النظر مشروعا لحد ما.. أو يصبح للناظر أكثر من مسوغ ليعيد الكرة وبعد العزف الأول تُستباح الموسيقى.

و رغم الوضوح المطلق لطغيان جمالها الذي لم يُترك فيه شيء للصدفة.. إلا أن علاء بالكاد أدرك لون عيونها.. بالكاد عرف قسمات وجهها، ولا خطر بباله أن جمالها كاسمها يحمل الكثير من معاني الكلام والصوت الخفي.

و ربما لم يدرك شيئا من ذلك الجمال لأنه كان يشارك الكمنجة الاضطراب ذاته.. فقد بدت في يده كبكر ليلة عرسها برجل لم تره من قبل.

كان يبدو زواجا فاشلا بكل المقاييس وحتما سيكون الفراق بعد إتمام مراسيم الزواج.. وبعد أن يخلو بهذه الآلة.

و هو عائد للبيت تزاحمت الأسئلة في ذهنه.. تسبقها ربما ولعلى.. كما زاحمت الكمنجة كتبه على المساحة الضيقة لمحفظته التي حاول أن يخفي الكمنجة فيها.. فأطلت بعنقها الطويل كامرأة عربية تريد أن تفضحه.. والكتاب المقدس في يده، هو لم يتركه في محفظته.. ربما الكتاب ليس من جنس الآلة والاختلاط حرام.

أراد أن يتخلص منها حين توسط جسر العشاق ولكنه كان خائفا من فعل ذلك.. أراد أن يُلقي بها من ذلك العلو الشاهق، ولكن صوت داخلي كان يقول.. اعبث بأوتارها في خلوة قبل أن تفعل ذلك.

شعر أنه يريد أن ينزل إلى ذلك الوادي البعيد ليحطم الكمنجة بيده.. ليتأكد أنه أتلفها دون أن يراه أحد فيخبر رافائيل، ولا بأس إن مد يده ليغازل خشبها الناعم والمجرد من كل غطاء.. حتى يصل إلى شعرها السافر فيمرر أصابعه بين خصلاتها وضفائرها.. مرورا بكل انحناءات جسدها يشمها.. ويشم عبق الطبيعة فيها.

لكن الوقت كان قد تأخر فترك ذلك التناقض جانبا.. وأخفى الآلة في تجويف أسفل نصب الأموات.. وعاد إلى البيت ينتظر بلهفة قدوم الغد.. لينزل إلى الوادي مع ذبيحته ليُحبها ثم يَهجر.. ليُغازلها وهو بغناها يكفر.

ارتمى على سريره وتَدَثَّر بلحافه الناعم يراود الليل ليَقْدُمَ عليه، ويغري النعاس بالدفء والقرب.. غير أن النعاس تأبّى وامتنع.. كحبيب له في كل بيت عشاقٌ يختار كل ليلة مضجعا مختلفا.

و زاره طيف أمه تلك الليلة دون أن يملك القدرة على استجماع أشلاء صورتها، ولا كان بوسعه أن يضيف لها ما يحلو له من الألوان.. الحركات والضحكات، لم يستطع أن يكلِّمها.. ولا كان بإمكانه أن يُمليَ عليها كلمات يريد أن يسمعها منها.

فقد أخفت صورة تخبطها كل الصور الأخرى، وهو لا يريد أن يتذكر ذلك.. ولا استطاع أن يغيّر لون الدم الأحمر بلون أقل ألما وحسرة، ربما لذلك غاب النعاس عنه.

و تجسد سؤال أمام عينيه مكان صورة أمه.. ولم تكن تلك المرة الأولى التي يراوده فيها ذلك السؤال.. لكنه لم يجد له جوابا ككل مرة، فهو لا يدري أهو سعيد بإتمام حفظ كتاب الله؟ وهل هذه السعادة مكتملة.. وهو

يشك في أن شيخه الذي علّمه أغلب أجزاء القرآن هو من قتل أمه؟

شكوكه بدأت في اليوم الذي سمع فيه تكبيرات شيخه أثناء الصلاة، تكبيرات لم تكن عادية.. فاللكنة أمازغية والثوب عربي.. والصوت كان قويا ومحفورا في الذاكرة.

بل ربما شكوكه بدأت حين رأى أمه تراقص الموت على أنغام التكبيرات، بعدها صار يتوجس خيفة من كل الذين يرفعون أصواتهم بالتكبير.

و لكن بطاقة تعريف شيخه الوطنية التي استرق علاء النظر إليها في يوم آخر غير عادية كذلك.. ليست ككل البطاقات.

و إن كان الشيخ قد قتل الأم حقا.. فقد أحيا ولدها علاء إذ علّمه آيات القرآن السمحة، وهل يعني ذلك أن رافائيل يستحق الموت لأنه يريد أن يقتل فيه بالكمان.. ما أحياه معلم القرآن؟

خطر بباله ذلك السؤال حين شعر أن رجل المالوف تآمر عليه تلك الليلة مع كل تساؤلاته السابقة ليحرمه من قدوم الغد.. فرفع صوته بالغناء.. فاليوم عرس أحد أبناء الجيران.

"و انا بالبغية تقوى غرامـي
أهلـكني يا سابغ الشـفر
عـدت نخمم فـي نجامـي
وطار العقل ولا وجدت صبر
سقطوا من عيني لمدامــع
والعقل يغدى ليه وسايع
الله يا سـود الريامـي"

استسلم علاء لسماع تلك الأغنية الشعبية مرغما وموقنا بأنه لن ينام أبدا.. دون أن يحاول فهم كلماتها.. استسلم لها ولإيقاعها السريع حينا والبطيء غالبا، فكانت الأغنية حينها الأرجوحة التي تسلل منها النعاس إليه، واختلطت أحلامه حينها بكلمات أغنية نجمة أو البغية وبمعانيها الخفية.

فرأى علاء نفسه مكان ساعد.. ذلك الشاب الغريب الذي لا يُجيد غير مقطوعات الزجل.. ويعرف الكثير عن أسرار البحر العنابي، ولكنه لم يكن يعرف شيئا عن سحر سيرتا.. وعن يوم البغية في هذه المدينة العتيقة.

لم يكن يعلم أن بنات البايات والشريفات ينزلن إلى أزقة المدينة للتسول.. ليتصدقن بما جمعن على الفقراء والمساكين في آخر ذلك اليوم.

تقدم ساعد نحو نجمة مشدودا بجمالها وبنعومة كفها الممدودة للتسول.. وقد أخرج كل ما في جيبه من دراهم ليضعها في يدها مسحورا بجمالها دون حاجتها للتِوَلة، وعلاء يرى نفسه مكان ساعد وبنت البايات استحالة في نظره أناغيم.

ودون أن يقول ساعد لنجمة أي كلمة عرفت أنه أغرم بها، وانتشر خبر ما وقع لبنت البايات مع هذا الرجل الغريب.

و في لحظة ما أسرع رجل المالوف في غنائه أكثر مما أسرعت أحلام علاء.. فاستيقظ حينها خائفا.. وفي تلك اللحظة بالذات فرّ ساعد من قسنطينة خائفا أيضا عبر أزقة تاريخها، ربما هذه هي اللحظة التي توقف الحب فيها عن الرقص حين اتهم بالاعتداء على الشرف.

واصل علاء سماع هذه الأغنية رغم إيقاعها الكسول وكلماتها المبهمة.. لأنه يريد أن يفهم سبب هروب ساعد، ويريد أن يعرف ما بقي من القصة، وربما كان يبحث عن نبوءة ما.. أو يريد أن يرى بعين

زرقاء اليمامة شيئا ما، أو يحاول قراءة طالعه مع أناغيم من خلف كلمات الأغنية.

ولم يكن يعلم أن طالعه لن يقرأه إلا على أوتار كمنجة وسط واد الرمال.

***

نزل إلى الوادي صباح ذلك اليوم متشبثا بصخور الكلس بيدٍ.. ومحكما قبضته على آلته الموسيقية أو ذبيحته يومها بيده الأخرى، وكلما نزل علت دهشته.. وخفتت أصوات البشر لتتصاعد أصوات كائنات أخرى.. في واد يبدو من دون قرار.

و كان ينوي أن يحطم الكمنجة في مكان لا تصله الأقدام.. ويحطم معها حكاية المزمار الحرام.. أو على الأقل يخفي هناك الآلة، فوجد أن المسؤول قد سبقته إلى الفعل ذاته وهو يخفي عن العالم طبيعة بأكملها.. عذراء ساحرة تُغَنِّي.

فهل كان المسؤول مثل شيخه يقول بحرمة الغناء.. فكتم صوت جمال الطبيعة وأخفاها بالإهمال؟ وهل كان زلزال 1958م متشددا أيضا ليفسد الدرب الذي كان يوصل السياح لمكان لا يوصف؟

و لكن يمكن أن يُوصف الطريق المؤدي إليه بأنه درب معلق بين السماء والماء.. يربط المدينة من

الأسفل، لكنه لا يشبه ذلك تماما.. هو أقرب إلى لوحة نحتها فنان متطرف.. على حواف صخور كلس تشبه قصيدة، ومد رسام يده إلى القصيدة وعبث فيها بفرشاته حين استسلمت له الألوان.

كانت المرأة السويسرية الأرستقراطية تشترط على فارس أحلامها شهرا من العسل.. في مدينة بها درب سياحي ساحر تسبقها إليه أحلامها.. ويطير فؤادها ليحلِّق فوق مغاراته، دهاليزه، شلالاته، ينابيعه، أشجاره، نباتاته وكائناته العجيبة.

لم يُطل علاء المكوث في ذلك المكان، خرج مسرعا تاركا كمنجته هناك.. كأنه كان يفرُّ من مواجهة كل ذلك الجمال.. الذي يشبه كلمات يحسبها السامع أكثر من عربية.. على شاكلة كُبّارا وعجابا.

و هو يتسلق صخور الوادي راجعا كان يتساءل عن سبب عدم تحطيمه للكمنجة.. كما قرر أن يفعل ذلك عند نزوله، هل لأن الكمنجة لم تفضحه وهو يمسكها لأول مرة وهي ملقاة على صخرة ككبش فداء؟.. يجب أن يذبح.

أم أنه شعر في لحظة خلوة أنها كائن حي؟ فقد سمع نبض أحد أوتارها وفضوله يمرر القوس على ذلك الوتر.. دون أن يضم الكمنجة أو يجعلها على حجره.

و حين أمسك أحد تلك الأوتار بيده ليعنِّفه.. وهو يجذبه إليه ثم يرسله.. دون اعتناء دون تشحيم يعبث به، سمع قضيضا ما كأن الوتر كان يتوسله.. يرجوه ليتوقف ويشكوا إليه دق العنق وانكساره.

حينها استلم علاء الآلة وجعل القوس يداعب كل أوتارها.. فبكت جميعُها واختلفَ بكاءُ وحنينُ وترٍ عن وتر.. واختلفت رخامة أصوات البكاء والأنين أيضا.. بين غلظة وترٍ ورقة آخر.

بدا لعلاء لحظتها أن عزفه كان متناسقا مع غناء الطبيعة، وربما الطبيعة والآلة اتفقتا سرا على الإغراء ذاته.. واتفقتا على الانسجام لتقويم النشاز وإخفاء ارتباك العازف، كل ذلك لكي لا يَئِدَ قائد الجوقة الآلة أو يقتلها.

وقد لا يكون علاء هو قائد الجوقة، ربما هو صاحب ذلك الصوت الخفي الذي كان يحاول إخافة علاء، وربما خوفه من صاحب ذلك الصوت هو الذي منعه من إتلاف الكمنجة.

و قد لا يكون ذلك كله.. لأن قتل هذه الآلة حياة لها، فأنت عندما تأخذ قوسها الحاد لتمرره على رقبتها فإنك بذلك تنحر صمتها، وقوسها في ذهابه وإيابه على أوتارها يمنحها الحياة ليس يقتلها.

فهل كانت تنزف بشدة أنغاما عند النحر؟ أم كانت تبكي بكاء القوارير لكي لا يواصل علاء نحرها.. فتكون بذلك قوّتها وسطوتها في ضعفها وفي بكائها؟ وغالبا من دون دموع أو بأخرى مصطنعة، أو ربما كانت تغريه ببكائها لمواصلة العزف والوصل وهي تراه يريحها إذ يذبحها؟

يفرحه بكاؤها عند العزف.. ويذهله عنادها فهي تتوقف عن البكاء حين يتركها.

زارها مرات قليلة في أيام متتابعة.. وما عاد يميّز بعدها بينها وبين أناغيم.. وإن اختلفت عنها في كفرها بالحجاب، فشعرها الطويل سافرٌ منسدلٌ.. وضفائره الأربعة مشدودة إلى المشط حيث تبدأ انحناءات جسدها الكبيرة الواضحة.

و مع ذلك هما أنثى واحدة فالصوت واحد.. الرخامة والغنن ذاتها.. الجسد ذاته نعومته فتنته والانحناءات متشابهة.

المشهد الرابع: راودته عيونها لتكسر صمته

اقتباس من النص

((... بدل أن يجيبها تساءل سرا.. هل سألته لتعرف ما يخفيه خلف صمته؟ فقد يخفي الصمت ألف حكاية وحكاية، أم أنها تريد من وراء سؤالها شيئا آخر مختلف، فقد قالت ما الذي يغريك في الصمت؟ ولم تقل ما الذي يعجبك فيه؟

أليست تغريك كلمة أكثر استفزازا وجرأة من كل الكلمات المرادفة لها؟ لكن لا عجب أن تصدر من امرأة جمال عيونها أكثر استفزازا من كلمة يغريك ذاتها)).

نوتات ونوتات متواصلة مرسلة وأخرى متقطعة، وكأن أوتار آلة ما تتحرك ويزداد اهتزازها.. فتزداد بذلك النوتات وضوحا، لتغري علاء على إغماض عينيه ليصل إلى أعلى درجات صفاء الذهن وحسن الإنصات، وتصل بذلك الآلة لمرادها.. والنوتات إلى أعلى درجات الإمتاع.

بدا له حينها أن النوتات لم تكن مرتبة وفق السلم الموسيقي من الوتر الرابع إلى الأول، بل كان الوتر الثاني يسبقهم جميعا ويتحرك مع الرابع والأول يتخلف مع الثالث.

ولم يكن الوتر الثاني هو (لا) ولكن كان ساقها الأيمن، ولا كان الوتر الرابع هو(صول) بل معصمها الأيسر، و(مي وري) صارا ساقها الأيسر ومعصم يدها الأيمن.

وما تلك النوتات إلا من مداعبة قوس الريح لأطرافها أو لأوتارها الأربعة حين سيرها، ولم تكن الأوتار لتنتظر القوس بل كانت تغريه بحركتها على العزف لجرأتها.

حينها أيقن علاء أن الأمر لا يحتاج إلى عين مغمضة وذهن صافٍ.. بل إلى دروع من مشاعر قوية لاستقبال حبيب مخيف في حضوره.

كأن تلك النوتات الجميلة استحالت فجأة طبول حرب يردد قلب علاء صداها دقات ودقات، أو كأن دقات قلبه كانت تحاول عبثا أن تسابق النوتات التي تصدرها تلك الفتاة الآلة الموسيقية في سيرها باتجاهه.

فتح عينيه حين توقف العزف وقامت أناغيم أمامه واقفة كأن أطرافها خيوط الشمس البيضاء في غير ليلة مقدسة.. من خلف أثواب لها يُرى ذلك البياض والصفاء الخالص وربما علاء لم يرى من ذلك البياض شيئا.. بل قاسه على صفحات ثلج أبيض مُرِّغت فيه أصابع قدميها.

وعاد العزف والصفير مجددا وهي تلقي السلام، لم يَرُدَّ عليها تحيتها فهو مشدود لا يدري كيف يتوقف العزف عندها ثم كيف يبدأ حين يوقن أنه توقف، ففي صوتها عزف وفي حركتها عزف واسمها عزف وهي آلة موسيقية.

فحيّته ثانية بإصرار واثقةٍ لترغمه على الرد ولكنه لم يردّ، إلا حين وصل بصره إلى إحدى طوابق جمالها وهو يرفع رأسه، ثم كان لا بد من الإسراع في تسلق تلك الطوابق وصولا إلى صفحات وجهها.. مدفوعا في تسلقه بفضوله وهو يغالب حياءه.. ويغلبه شيء من

ذلك الحياء العفيف فيدفعه للإسراع في التسلق أكثر ..و ما أوقفه إلا لمعان ثغرها المتبسم.

لا وقوف إلا على مثل ذلك الثغر وعلى لسانها الذي يتعهد شفتيها ويتفقد نعومتهما ولمعانهما فيطل كل هُنَيْهَةً في غير مواضع نطق حرف الذال.

لا وقوف إلا على لآلئ فِيّهَا المصفوفة صفوف الراهبات اللائي قُمن يصلين لربهن، غير ضرس تمرد وقام يصلي منفردا خارج الصف، وما أحدث نشازا ولكن كان لابد من إمام يدل على محراب فمها.

تبسمت لخجلهِ منها فرأى خدين مفروشين وردا أبيضا، وأكثر من (خانة) مبعثرة هنا وهناك كلمسات أخيرة لجمال مقدس، كأن الشمس تشرق من بياض فرش خديها، وتتوهّج أشعتها من حمرة وجنتيها، وتعود الشمس لتغرب عندها وتخبو أشعتها في سواد عينيها.

قالت وهي تمعن النظر إليه:

- لماذا أنت قليل الكلام كثير الهدوء؟... ما الذي يغريك في الصمت؟

حينها أخذ علاء نفسا عميقا وهو يسترق النظر إلى عينيها، ورفع كفه ليمسح بباطنه شفتيه استعدادا لقول شيء ما.. وليَأخذَ من الوقت ما يكفيه ليجد جوابا مناسبا

لسؤالها، فلصمته أكثر من سبب.. وقد يصلح لسؤالها أكثر من جواب.

و بدل أن يجيبها تساءل سرا.. هل سألته لتعرف ما يخفيه خلف صمته؟ فقد يخفي الصمت ألف حكاية وحكاية، أم أنها تريد من وراء سؤالها شيئا آخر مختلف؟ فقد قالت ما الذي يغريك في الصمت؟ ولم تقل ما الذي يعجبك فيه؟

أليست يغريك كلمة أكثر استفزازا وجرأة من كل الكلمات المرادفة لها؟ لكن لا عجب أن تصدر من امرأة جمالها أكثر استفزازا من كلمة يغريك ذاتها.

أراد أن يقول لها حينها وقد طال صمته "للغة حدود وقيود ولا يمكننا أن نغادر حصار كلماتها ولا أن نتمرد على قيودها إلا حين نصمت" ولكن أعاق لسانَهُ حُسنُها فسكت، وكفى بحسنها سببا للصمت إذن.. وكفى بالصمت جوابا لامرأة جميلة.

و لكن كان عليه أن يجيبها بأي لون من ألوان الإجابة، فخطر بباله أن يقول لها "الصمت أكثر ثراء من الكلام.. نحن نتكلم حين يفيض بنا الصمت" ولكنه لم يقتنع بهذا الرد أيضا ففضل الصمت.

فضل الصمت لأنه رأى أن في جوابه لها ومهما كانت طبيعة الجواب دعوة سرّية ما للبقاء ولمواصلة

الحديث معه، وهو لم يكن يريد المجازفة أكثر مع امرأة.. وإن استأنس بقربها.

فأجابت بدلا عنه قائلة:

- أنا أعلم أن الإكثار من الكلام قد يضر.. ولكن القليل منه ولو صراخا ضروري للبقاء.. بل هو دليل على ذلك، وقد يصلح كدواء لأكثر من مرض نفسي.

سكتَتْ بعدها برهة كافية لتنظر إليه مليّا ولترى كيف كانت ردت فعله، لتختتم كلامها بسؤال يقبل الإجابة بنعم أو لا، ولا يقبل الصمت.. وهي تواصل محاولاتها لجعله يتكلم فقالت:

-ألسْتَ تشاطرني الرأي؟

فأشار برأسه نعم دون أن يقول أي كلمة، ولم يكن يقصد بذلك أنه يشاطرها الرأي، ولكن كان يقول في نفسه نعم "الصمت أيضا صراخ ولكنه أكثر عمقا وأكثر لياقة بكرامة الإنسان".

تغيّر مزاج علاء فجأة وبدأ يشعر بشيء من التضايق منها فقد كان قربها يخنقه، وهو يريد أن ينفرد بجمالها دون أن يواجه سطوة حضورها، أو يريد أن يسترق نظرة أخيرة إليها وهي تغادر.. ثم يُغلق أجفانه ساعة كي لا يفلت تضاريس جسدها ولا قسمات وجهها.

لحظتها كانت أناغيم تقول في نفسها لا بأس لقد تجاوب معي وحرّك رأسه يمكنني أن أجعله يتكلم، فسألته مجددا:

- لازلتَ صامتا أ أفهم أنك تفضل عدم بقائي؟.. أليس كذلك؟

وهي بهذا تحاول استدراجه للحديث إليها بكل ما أوتيت امرأة من حيلة ومكر.

وكان يجب عليه أن يجيبها ولكن لم يكن يليق به أن يقول لها نعم لا أريد بقاءك، ولو قال غير ذلك فكل كلمة منه ستكون استدراجا لها لشيء ما وحينها "قد يكون الصمت أفضل من كلمة تكون خطوة لمجهول لا يريد المضي إليه" فكان الصمت هو جوابه النهائي.

لكنه خشي أن يخسرها إذ يمكن أن تعتبر سكوته عدم احترام لها فتغادر دون عودة، هو يريدها أن تغادر في هذه اللحظة دون أن يُكثر من قربها، وأن تعود إليه كل مرة وأن يسمع صوتها بين الحين والآخر.

و بدل أن يقول أُفضِّل بقاءك أو ذهابك سألها لكي لا يجيبها.. ولكي لا يخسر قربها أيضا فقال:

- هل هناك ما يزعجك في الصمت؟

فأجابت بكل ثقة وكأنها تعرف السؤال مسبقا.. أو كأنها تقرأ شيئا مكتوبا على ورقٍ وهي تقول:

- "الصمت لا يزعجني.. وإنما أكره الرجال الذين في صمتهم يشبهون أولئك الذين يغلقون قمصانهم من الزر الأول إلى الأخير.. كباب كثير الأقفال، لإقناعك بأهميتهم"

لم يفهم علاء هل كانت أناغيم تمدحه أو تفضحه أم تمازحه؟ وقد تكون استعارت كلمة الكره لتفتح بابا إلى الحب؟ أو ربما تريد شيئا آخر؟ فكلماتها كانت مفخخة بما يكفي لتجعله يرد عليها متهكما كمن يريد أن يفر إلى الخلف وأي جواب آخر قد لا يناسب المعاني التي أرادت أن تصل إليها بكلامها فقال لها:

- كم من الأزرار تعتقدين أنه يجب علي أن لا أغلقها.. كي أكون مهما دون الحاجة لبذل جهدٍ لإقناع الآخرين بأهميتي؟

فقالت مبتسمة تغالب ضحكتها كفجر يغالب صبحا يتنفس.

- ربما زر واحد يكفي؟

فرد عليها وقد غلبه الضحك.

- إذن سأمزق زرا من كل قميص أملكه لأكون مُهِمّاً.

و كتم في نفسه.. مهمًّا بالنسبة إليك، ثم توقف عن الضحك فقد خشي أن يكون ضحكه هذا هو دعوته السرية لها للبقاء.. والكلمة الخفية التي قد تدفعه وإياها للمجهول.

و مع ضحكاتها المتواصلة شعر أنها أذِنت له بالنظر إلى عينيها كما يحلو له، رفع رأسه متماسكا والتقت العيون برهة كانت كافية لتخطف بصره.. وليتيه في ذلك السواد المعتم الواسع من حور عينيها.

غضّت حينها أناغيم طرفها حياء أو لتمنح عينيها استراحة مقاتل قبل أن تعود للمواجهة، وربما كان الشاعر يقصدها حين قال "في حسنها شبقٌ غضبان قيّده حياؤها فإذا ما أفلت انتقما".

هاب علاء انتقام حسنها وعودة عيونها للمواجهة فأشاح بوجهه عنها.. بعد أن رأى آخر طوابق حسنها.. رأسها وقد توجته يومها بخمارين خَمَرَ أسودهما جل الأبيض.

استأذنته كي تغادر بعد أن ربحت معركة كسر الصمت في اللقاء الأول، وغادرت حين كان بإمكانها أن تبقى طويلا، وقد تلقّت دعوة خفيّة لذلك مع ضحكاته المقتضبة.

غادرت وقد اشتاق إليها مع أول خطواتها مبتعدة عنه.. وقد بدأ العزف حينها وبدأ ما يشبه القرع رغم أن جسدها بدا لعلاء أنه أشبه بآلة وترية وليس آلة إيقاعية.

***

تساءل وقد عظم شوقه إليها فجأة وهي لم تبتعد عنه كثيرا، لما كان يريد ذهابها وقد استأنس بقربها؟ أم أنه كان يريد ذهابها وبقاءها في آن واحد؟ وما الذي كان يُخِيفه في بقائها قريبة منه؟ هل هو الخوف من الوقوع في الحب أم الخوف من حتمية البوح به؟

ولما لم يرد أن يكون حديثهما طويلا؟ وهل شعرت هي برغبته تلك فغادرت مسرعة دون أن تطيل الحديث معه؟ وأين المجازفة في الحديث معها.. أم أن سحر الحب لا يعدو أن يكون بضع كلمات؟ إن كان ذلك.. فلما كان يريد في كل الأيام التي تلت لقاءهما هذا أن يستزيد من تلك الكلمات.

هل لأن حبه لها ولد متطرفا؟ وهو يريد أن يعيش هذا الحب منفردا ومعتكفا.. دون أن يشاركه فيه أي أحد.. حتى التي أحبها بالذات، فأي عبادة حب هذه التي يُقبل عليها؟

وهل تركت أناغيم أعراف الحب جانبا حين تحاشت لقاء علاء بعدها ولأيام عديدة؟ أم كانت تريد منه المبادرة لتعرف من خلالها ما إذا كان قد وقع في شباكها؟ أو ربما هي حيلة امرأة عرفت كيف تضع الطعم وبقيت تنتظر إشارة ما لتسحب الصنارة؟

و لكنها لم تحصل على تلك الإشارة التي أرادتها فهو لم يبادر ولو بتحية صباحية أو مسائية.. ربما هو يريد أن يستعين بالأيام على الآفلات قبل أن يُحكِم عليه حُبها قَبضته؟ ولم يكن يعلم أن الحب ينمو بالبعد أكثر مما ينمو بالقرب، وأنه كلما توالت أيام البعد كلما اتقدت جذوة الحب ونَمت.

بدأ علاء يفهم شيئا من تلك المعاني مع مرور الأيام.. وهو يواصل تظاهره بعدم الاهتمام بامرأة رأى خيالها مرة، هنّأته في المرة الثانية، ألقت عليه السلام في الثالثة، وقاسمها نظرة أو نظرتين وابتسامة واحدة.

فذلك لم يكن بالنسبة إليه دليلا كاف لإدانة اثنين بالوقوع في جريمة الحب بتواطؤ، ولا كان يريد أن يعترف لنفسه بوهم ارتكاب هذه الجريمة من طرف واحد.

غلب على ظنه أنها امرأة فضولية حاولت تسلق قلعة صمته لتشبع كبرياءها بالانتصار على سكوته، أو

قد لا يكون لتصرفها معه أي مبرر غير كونها تشبه العطار أو بائعي الورود، ومعها شعر هو بشيء من الأَنَفَة على عطرها المهدور، وأنه يمكن أن يكون البستاني الذي يستأثر بكامل أزهارها.

اشتدت غيرته على ابتساماتها التي جَعلت لكل واحد نصيب منها، وربما كانت تستفزه بتلك الابتسامات التي لم يُحرم منها سواه؟ لجعله يتساءل أكثر عن سر غيرته على امرأة لا يريد أن يستسلم لها.

و كان لا بد لأحدهما أن يستسلم للآخر وربما هذا الذي وقع، فقد خشيت أناغيم على جذوة الحب.. فقامت تتعهدها وتمدها بمزيد من الوقود وهي تلقي السلام على علاء في إحدى صباحات المدينة الجميلة، وكل صباحاتها جميلة، ولكن ذلك الصباح كان بالنسبة لعلاء أجمل وهو يسمع صوتها:

- صباح الخير علاء لا باس ما عليكش.

بلهجة قسنطينية مليحة ازدادت حلاوة وهو يسمع اسمه للمرة الأولى تردده نغمات صوتها.. وقد سمعها من قبل تناديه باسمه العائلي وليس باسمه الشخصي لحاجة ما في نفسها، فكفى بسماعه لاسمه على لسانها وقودا للحب.

فرّد عليها سلامها مجيبا وسائلا عن حالها.. مطأطأ رأسه ومكتفيا بنظرات سارحة تمسح جسدها ومجال وقوفها دون أن تطال وجهها.

- لا باس الحمد لله وأنتِ ما عليكش.

تساءل سرا هل كانت مهتمة حقا لتسأله عن حاله كما كان مهتم لمعرفة حالها؟ وأنها جاءت لهذا السبب؟ أم أن كلماتها هذه تشبه عطرها وابتساماتها التي تصلح للجميع وتوزع على الجميع أيضا بأقساط غير متساوية.

وكان الصباح جميلا حقا وهو يتنفس مع كل الحروف التي تشتاق إلى شفتيها.. وقد غادرت لتوّها مخارجها وأناغيم تواصل حديثها:

- علاء ما رأيك أن نشاهد معا مسرحية جميلة من التراث القسنطيني مساء هذا اليوم.. بعد انتهاء الفترة الصباحية للدراسة.. فلا دوام لدينا هذا المساء؟

و كأنها وهي تعرض عليه هذه الخَرْجة تريد أن تدفع به أو تتدافع معه إلى مجالات أعمق في أخاديد الحب.. يكون فيها المكان والزمان برمزيهما نقوشا للذاكرة.. وتربة خصبة ينمو فيها الذي أرادت، وقد رأت أنه قد لا تنفع مع علاء لوحدها الكلمات، لا بد من

ظرف يحرّك فيه شيئا ما ويناسب تلك الكلمات، سألها حينها:

- ما عنوان هذه المسرحية؟

ليس ليوافق على فكرتها أو ليرفضها وإنما دفعه فضوله لذلك فقالت:

- إنها مسرحية البوغي.

و قبل أن يسألها عن معنى كلمة البوغي.. والتي بدت له تركية أكثر منها كلمة عربية، همّت هي بالمغادرة كأنها لا تريد أن تُفصح عن أي شيء، تريد أن تجعل الغموض يحيط بدعوتها تلك لكي يدفعه ذلك أكثر للمجيء.. ولتتأكد أنه لن يتأخر عنها وهي تغادر قائلة:

- علاء نلتقي في المساء إذن.

لم يقل لها نعم ولا قال لا، وانسحبت هي تجر ذيلها في خيلاء الواثقة يسبقها حياؤها.. وقد تخلفت عن موكبها نظراتها، كأنها تريد أن تعرف هل حرّك شفتيه أم لا؟ وكان الصباح بعدها يأخذ شهيقا وزفيرا طويلين متتابعين مع نبضات قلب علاء.

هو لا يدري هل قالت له في المساء نلتقي داخل المسرح؟ أم أنتظرك عند بابه في الساعة الرابعة زوالا؟ أم أن ابتسامات عينيها كفتها مقالاتها؟ ومن قال

أن العينين لا يسبقان الشفتين في الابتسامة والفعل ويتأخران في المغادرة؟

ابتعدت أناغيم وبقي علاء مكانه يفكر في دعوتها تلك ويعيد على نفسه عباراتها، وسعادة مريبة تغمره لا يدري مصدرها ولا كيف غزت قلبه فجأة؟ ولا استطاع أن يفهم كيف للسعادة أن تسمح للشك بأن يقاسمها المكان ذاته؟

ربما لأنه قرّر أن يذهب لمشاهدة المسرحية معها خفية؟ فهذه فرصته ليكون قريبا منها.. ليتغلب على ضعفه أمامها وليواجهها بجرأة توافق جرأتها ولو تمثيلا.

و ربما مصدر ذلك الشك أنه خطر بباله لحظتها أن يتمرد أكثر.. وأن يواجهها بجرأة أكبر من جرأتها.. فلا مكان للوقوف في الوسط، فإن كان ولا بد ذاهبا إلى المسرح فعليه أن يقدِّم لها شيئا ما كهدية.. ليقتل بذلك ارتباكه أمام سطوة حضورها إلى الأبد.

هدية لا تُكلف فقيرا.. ترضي غنيا وتشبع غرور امرأة، وليس هناك ما هو أنسب من الورد لكل ذلك وما أكثر الورود وما أغلاها.. وليس كل شيء تقل قيمته بكثرته.

قام علاء بعد انتهاء الدوام يتسلق شجرة ورد في باحة الثانوية.. ليقطف وردة علت ظهر شجرة مقلَّمة الأغصان، وردةً لونها وردي فاتح يرمز للفضيلة، وخز يده شوكها وهو يقطفها، قرّبها إليه وشمّها فلم يُشبع رغبتهُ عبيرها.

مد يده لوردةٍ أخرى حمراء اللون.. ولكنه لم يقطفها فقد هاب لونها الرومانسي والدموي في آن واحد، هو لا يحب هذا اللون حتى في الورود أو في أي شيء آخر، فلو كانت كل الورود حمراء ما كان ليحب يوما وردة.

فاختار وردة ثالثة لونها وردي سلموني أغمق من المشمشي ووورديا أكثر من كونه برتقالي.. يرمز لرغبة مكنونة قد تنقصها الفضيلة، أدمى شوكها يده وذراعه وهو يستعجل القطف والنزول، وصوت الحارس يقترب منه.

نزل ودَسَّ الوردتين في محفظته ومسح دم ذراعه في جوفها وهو يسحبها.

حينها شعر علاء بألم ما في قلبه وإن كان الجرح في يده، ربما لأن الوخز هو "وخز الضمير الذي قد تشعر به وأنت متمتعٌ بكامل صحتك؟ "

و عندما يبدأ هذا الوخز قد يبدأ معه صراع داخلي بين أكثر من فكرة متناقضة بداخلك، كما يصارع عطر الوردة شوكها لتكون الوردة رمزا للحب وليست رمزا للعدوانية، وربما غلبت الأشواك العطر في صراعهما الأزلي؟.. فجعلت هذه الوردة دم علاء ينزف قبل أن يشم عطرها.

و جعلته يعيد التفكير في امرأة لا تحاول إخراجه من وحدته ومن صمته فقط، وإنما قد تخرجه عن طريق رسمت انحناءاته الأعراف.. وزيّن الدين حوافه بالحياء والخوف.

تساءل علاء هل مرافقته لها إلى المسرح يعني تنازله عن شيء من مبادئه؟ أم أن عليه أن لا يكتفي بِجُرم العزف على آلة وترية؟ بل عليه أن يرافق امرأة تعزف فطريا خيرا من فرقة موسيقية كاملة كي لا يشعر بعد ذلك بالتناقض.. فالتناقض ليس له مسكن آخر غير الوسط.

بحث علاء عن سبب ما لكي لا يضيّع على نفسه لقاءه بأناغيم، وتساءل مرة أخرى وهو عائد إلى البيت أليست الكمنجة هي أناغيم.. وكلاهما أنثى واحدة، وإن كان لكل واحدة منهما إيقاعها.

وربما الجلوس مع الكمنجة في واد الرمال سرا هو أشد وزرا من الجلوس مع أناغيم في المسرح الجهوي بسرّية أقل؟

لم يقتنع كثيرا بحواره الداخلي المزيّف.. فهو يعلم أن آلة يُعزف عليها ليس كامرأة تَعزف لوحدها، والحب ليس مبرر كاف لإتيان النوافذ بدل الأبواب.

قرّر حينها أنه لن يذهب معها إلى أي مكان فالعرف والدين يمنعانه من ذلك، وربما خوفه من المواجهة الذي لم يستطع بعد أن يتغلب عليه هو ما يمنعه حقا؟ «فما أكثر العفة المتولدة عن العجز" والضعف وإن كان لا يريد أن يعترف لنفسه بذلك.

اتخذ قراره وتوقف عن التفكير في هذا الأمر، ترك هذا الحلم المريب جانبا وهو يرى بأنه ليس بإمكانه تحقيقه، ربما "لأنه في أوقات الضعف تكون الأحلام باهظة التكاليف"؟ وربما الأجدر به أن يتخلص من الوردتين ليتخلص معهما من الصراع بين العبير والأشواك الذي يسكن ذاته؟

وصل علاء إلى البيت ودقّ بابه ففتح والده الباب وهو يمعن النظر إلى ابنه.. بينما اكتفى علاء بتحية وابتسامة سريعتين وتوجه بعدها صوب غرفته، وقد اعتاد الجميع على قلة كلامه وعزلته.. لكنه هذه المرة

بالكاد أغلق باب غرفته ليُعيد فتحه، حينها التفت والده إليه وهو لا يزال في رواق البيت، سأله وهو يتقدم صوبه بخطوات متثاقلة:

- هل تريد شيء يا علاء؟

فأجاب علاء بسؤال آخر ولكن بصيغة ما بال أقوام وهو يقول:

- أبي هل يمكن للإنسان أن يفعل شيئا ما وهو غير متأكد بأنه هو الصواب؟

فَردّ عليه بحكمة شيخ يعرف ابنه جيدا، وخبر الحياة فلخّص له تجاربها بقوله:

- إن كان بإمكانك أن تخبرني ما هو هذا الأمر فبإمكانك فعله أيضا.

أُعجب علاء بكلام والده وإن لم يوافق هواه.. وتوقف طويلا يتمعن في معاني هذه القاعدة التي وضعها والده، فالأمور الواضحة العلنية قلّما يكون فيها شيء من الريب والشك، والخفيّة والسريّة منها مَدعاةٌ للحيرة ولتأنيب الضمير.

فكانت كلماته هذه قويّة على قدر جعلت علاء يسكت طويلا، ثم انتبه إلى أنه إن ظل ساكتا سيعرف والده أنه يُقبل على أمر ليس في مصلحته وفق القاعدة التي وضعها فقال له.

- أبي في الحقيقية.. أعتقد أنه غير مناسب أن أخبرك بهذا الأمر الآن.

و كأنه يريد أن ينفي عن فعله الذي يُقبل عليه السرية التامة.. ليكون بذلك أقرب إلى الصواب وفق قاعدة والده فهو يتحجج بأن الوقت غير مناسب للحديث فقط، وعاد إلى غرفته ثانية متظاهرا بحاجته للنوم والراحة.. وأغلق باب غرفته مبتسما هذه المرة وهو يسمع والده يتمتم.

- لو كان الأمر بَيِّن وفيه خير لك لما ترددت في فعله.. ولما جعلته سرا وكرهت أن يطلع عليه الناس، ومادام قد أَشكَلَ عليك وحاك في نفسك فأخفيته عني.. فأقل القول فيه شبهة وتركه أولى من إتيانه.

فألقى علاء بجسده على سريره وأغمض عينيه على كلمات والده.. وقد قرّر أن لا يخرج من البيت هذا المساء وأن لا يذهب إلى أي مكان، مال علاء على جنبه الأيمن، ومالت الشمس أيضا عن كبد السماء مسرعة في سباحتها، وجاء المساء مستعجلا في تواطؤ واضح.

المشهد الخامس: مواعدة على سحر الحب

اقتباس من النص

((عرف أن الذي يقتل ويدفع للانتحار في هذه المدينة وفي هذا الوطن منذ الأزل هو الكتمان والحب الصامت، وأن الذين ينتحرون إنما يفعلون ذلك لتكون لهم فرصة للصراخ ورفع الصوت والجهر بالحب دون خوف.. ولو لمرة واحدة وأخيرة، فمتعة التصريح والبوح بالحب ولو كان صراخا تساوي الحياة كلها)).

ينادي الأب على ابنته ليلى أن أيقظي أخاك إنه وقت صلاة العصر.. فيأتيه صوت ليلى عجولا وضاحكا من داخل غرفة علاء بعد برهة وجيزة من ندائه.

- أبي علاء لا يوجد في الغرفة ونافذة غرفته مفتوحة.

أسرع الأب إلى غرفة علاء كأنه غير مصدق لكلام ابنته، أخذ يتفقد أغراضه علّه يفهم شيئا من تصرفه هذا أو يعرف أين ذهب، أدخل يده في حقيبة علاء فوخزه شيء ما، استل يده ثم أعاد إدخالها ببطء ليسحب الوردتين من داخل حقيبته.. وهو يحرّك رأسه منزعجا ومتمتما بقوله لا تُؤتى البيوت من نوافذها.

انتزعت ليلى من والدها إحدى تلك الوردتين اللتين لم يأخذهما علاء معه ليقدمهما لأناغيم.. ولا هو قام بإتلافهما، ربما كان يريد للصراع بين العبير والأشواك أن يظل قائما على ما هو عليه دون تغيير.

خرجت بعد ذلك ليلى من الغرفة مسرعة وهي تحمل الوردة وتمزق أوراقها الواحدة تلو الأخرى.. غير آبهةٍ بفكرة الصراعات وهي تعبث بأوراق الوردة قائلة:

- تحبني.. لا تحبني.. تحبني.. لا تحبني..

و تضحك باكية فقد وافق قطع الورقة الأخيرة من الوردة مع قولها أمي لا تحبني.. فقد ذهبت دون رجعة.

و أناغيم تمزق أوراق أخرى من أذيال الخيبة أمام باب المسرح وتعبث أسنانها بشفتيها.. فقد غاب علاء أو على الأقل تأخر كثيرا عن الموعد رغم أن المسرحية لم تبدأ بعد فقد تأخر عرضها هي الأخرى.

فكّرت حينها في العودة إلى البيت فهي لا تشعر برغبة في مشاهدة هذه المسرحية.. وتعلم مسبقا تفاصيلها، فقد شاهدتها من قبل أكثر من مرة وإنما أرادت هذه المرة أن تشاهدها وأن تعيش أحداثها مع علاء.. لأكثر من حاجة في نفسها.

ولكن ما الذي ستقوله للعجوز التي رافقتها إلى المسرح وهي تنتظرها داخل قاعته الرئيسية التي سبقتها إليها؟ هل ستقول لها أنها فقدت الرغبة في مشاهدة هذه المسرحية لأن الشاب الذي تريد لقائه لم يأتي؟

فعجزت أناغيم عن قول ما كانت ستفعله، ربما لأن فعلها يمكن أن يؤوَّل ولا تؤوَّل الكلمات؟ أو ربما يمكن للمرء أن يملك الجرأة على فعل أشياء ولا يستطيع في الوقت ذاته أن يبوح بها؟ كما قد يمكنه أن يمارس

الحب ويحياه بكامل طقوسه دون أن يمتلك الجرأة على التصريح به ولو لمرة واحدة.

دخلت أناغيم لتشاهد مسرحية البوغي مرغمة.. أو دخلت لتتقمص دورا ما في هذه المسرحية الحزينة.. وهي تتساءل هل حقا كُنت سألتقيه هنا ؟.. وبحضور أم أيمن التي تريدني زوجة لابنها وهي من تنفق عليَ والوصية على أخواتي؟ ولم تعد حينها أناغيم تعرف هل هي منزعجة حقا من غياب علاء أم سعيدة لذلك.

ابتسمت أناغيم لأم أيمن وهي تدخل المسرح.. وكأنها بتلك الابتسامة تستأذنها في أن لا تجلس معها.. وأن تتقدم أكثر للصفوف الأمامية لتكون أقرب للمنصة.

لم تمانع أم أيمن لذلك ما دامت أناغيم ستكون أمام عينها، وربما هذه فرصة أخرى تستطيع فيها قراءة شيء من أورادها وتعويذاتها الخفية للحب.. لكي لا تكون أناغيم لغير ابنها.

لم يكن هدف أم أيمن ولا هدف أناغيم مشاهدة هذه المسرحية من البداية، فلكل واحدة منهما هدف مغاير، ولم يعد لأناغيم أي هدف من مشاهدتها بعد غياب علاء.

وما كادت أناغيم تتوسط القاعة الرئيسية للمسرح حتى تفاجأت بعلاء يقف أماما.

فاجأها بحضوره بقدر ما فاجأ ذاته، قرَّرَ أن لا يُلبي دعوتها ولكنه سبقها إلى المسرح، ربما لأنه في الحب نادرا ما تفعل الذي تؤمن به وإنما الذي يناسبك ويناسب هواك، بل لا يمكن أن تكون قد أحببت أو جرّبت شيئا منه.. إن لم تكن قد ارتكبت أكبر حماقات حياتك في بدايات حبك.

فضّل علاء أن لا ينتظرها خارج المسرح بل داخله ليزيل عن نفسه حرج اللقاء بامرأة.. وليجعل بذلك الصدفة غطاء لهذا اللقاء المدبر.

اقتربت منه أكثر وقد أشرق وجهها الصبوح إشراقة غير منقوصة.. وعجز جسدها على أن يعزف بحرية أنغاما كالتي اعتاد أن يعزفها، أو كأن جسدها توقف عن العزف قبل أن يبدأ (الاستخبار).

بادرته بالتحية معتذرة وقد بدا لها أنها هي من تأخرت عنه، فقالت:

- مساء الخير علاء وسامحني إن شاء الله ما نكونش طولت عليك.

لم يَرُدَ عليها بسرعة فقد بدا له أن صوتها كان خافتا.. أقل رخامة ومدود الغنن فيه منقوصة، وأن ثمة

شيئا ما خلف هذا الصوت المضطرب جعل علاء يتساءل سرا ما بالها؟ أو ربما ليس ذلك هو الذي جعل رده يتخلف؟ بل جمالها الذي فرض عليه الانتظار وقتا كاف يستجمع فيه أنفاسه لقولِ شيءٍ ما.

ولم تكن في حاجة لتعتذر عن تأخرها ولا عن أي شيء آخر باستثناء سطوة جمالها، تلك هي خطيئتها الأزلية وذنبها الوحيد، وكان ذلك الذنب يومها منقوص الهيبة لارتباكها.

رد علاء عليها وهو لم ينظر بعد إليها نظرة صريحة باستظهار وقول إحدى تلك الجمل التي ظل يحفظها في غرفته قبل مجيئه إلى المسرح.

ولكنه من فرط حيائه منها لا يدري أي تلك الجمل التي قالها لها، هل هي إحدى الجمل الفصيحة؟ أم جملة بلهجة قسنطينية أقل فصاحة وأكثر عذوبة من الفصيحة ذاتها؟ أم أن العذوبة لم تكن في الكلمات بل كانت في التقاء النظرات؟

ابتسمت أناغيم لكلامه لتخفي ارتباكها من أم أيمن أو ربما لتفضح ارتباكه، فقد شعرت أن رده كان جاهزا ومحضرا من قبل لم يكن عفويا ولا كان مناسبا لاعتذارها له، وربما ابتسمت لأنه رد عليها.. يكفيها

حديثه إليها ولا يهمها كيف كانت طريقته في استعمال الكلمات.

لتختزل بعد ذلك نظرة واحدة ومتبادلة منهما كل معاني الحب والحيرة، السعادة والدهشة، الحياء والرغبة، الجرأة والفضيلة.. نظرة مشتركة قال فيها كل منهما ما أراد أن يقول دون حاجتهما للكلمات.

حاول كل منهما بعدها أن يقول أي كلمة تخرجهما من ذلك الموقف الذي تسببت فيه تلك النظرة اللامحدودة المشاعر، أي شيء المهم أن ينكسر ذلك الصمت بكلمة أو إشارة أو بضحكة يكبتها الحياء ويطاردها شعور الذنب لجرم اللقاء المدبر، أو أي شيء آخر المهم أن لا يطول ذلك الصمت أكثر.

ابتعد علاء قليلا عن المقعد ليسمح لأناغيم بالجلوس.. فألقت بجسدها على الكرسي الذي كان يجلس عليه لتلقط حرارته، أو ربما لتلتقط أنفاسها.. فَذَلك أقرب كرسي إليها أو قد يكون أقرب كرسي إلى قلبها.

مالت على حافة ذلك الكرسي بزاوية سمحت لها باستراق النظر إلى أم أيمن.. تغير بعدها وجه أناغيم سريعا فاعتدلت في جلستها دون أن تقول أي كلمة.

لاحظ علاء أنها قد ازدادت ارتباكا واضطرابا وأن شيئا ما يشغل بالها، سألها أكثر من مرة ما بك يا أناغيم؟ لكنها لم تكن ترد.. وحين ألحّ عليها قالت له أشياء جعلته أكثر اضطرابا منها واستسلم حينها للجلوس وللذهول معا دون أن يُعقِّب على كلامها.

اختار علاء كرسي على حافة الصفوف اليمنى وتركها جالسة على حافة الصفوف اليسرى، وبدل أن يجلس بجانبها فضل أن يجلس مقابلا لها، بعيدا عنها وقريبا منها.. ليس يفصلهما غير ممر ضيق يقود إلى المنصة، بعيدا بقدرٍ لا يشعر فيه بسطوة حضورها.. وقريبا بقدر يمكِّنه من التقاط أنفاسه وأنفاسها.. واستراق النظر إليها.

فضل أن لا يجلس بجانبها وإنما جلس مقابلا لها كردة فعل طبيعية على الكلام الذي قالت، أو كأنه بفعله ذلك يوسّع مجالات الصدفة ويقلل من احتمال اللقاء المدبر في أعين الناس.. وفي عين تلك العجوز التي لم تزح ناظريها عنهما.

بدأ عرض مسرحية البوغي ولكن علاء لم يكن مهتما بتفاصيل تلك المسرحية فقد كان مشغول البال يتساءل لما لم تأتي أناغيم منفردة؟ هل رافقتها هذه العجوز رغما عنها فهي التي تعول أسرتها؟ أم أن

أناغيم هي التي عرضت عليها مرافقتها لتشعر براحة أكبر وهي مع علاء؟ أو ربما لترسل له ولها أكثر من رسالة من وراء هذا اللقاء.

هل جاءت حقا للقائه فقط؟ أم أنها تريد أن تقول لأم أيمن بلقائها مع علاء أنها لا تصلح زوجة لابنها؟ دون أن تقول ذلك ودون حرج التصريح الواضح.. هي تريد أن تقول أشياء كثيرة وأن تترك جانبا كل المفردات.

هل دبّرت هذا اللقاء لأنها تريد من علاء أن يقول ويفعل شيئا ما لأجلها؟ وما أخبرته بأن أم أيمن تريدها لابنها إلا لتثير فيه مزيدا من الغيرة أو أي مشاعر حب اتجاهها، أم أنها ما دبّرت هذا اللقاء إلا لتجعل علاء تَيْسا مستعارا أو أداة تُخرج بها أيمن من حساباتها؟

التفت علاء إلى تلك العجوز باحثا عن إجابة ما لديها عن كل تلك التساؤلات التي دارت في ذهنه حولها وحول أناغيم.. فمدت العجوز يدها لتخفي حركة شفتيها وهي تقرأ شيئا ما بدت حروفه السرّية في ارتباك عينيها.. وتكفلت أصابع اليد الممدودة بإخفاء خصلة من شعرها مخضبة بالحناء.. وقد أفلتت الخصلة من تحت غطاء شعرها.

استوى علاء جالسا وقد تسللت إلى جسده قشعريرة جعلته يلتفت للمرة الثانية ليعرف سر تلك القشعريرة

وقد شعر أن مصدرها تلك العجوز وتعويذاتها؟ لكنه وجد كرسيها شاغرا، بحث في وجوه كل الحاضرين فلم يعثر لها على أثر.

تساءل بعدها لما غادرت؟ وهل نجحت أناغيم في طردها وهي تبتسم لعلاء لأكثر من مرة متعمدة إظهار سعادتها أمامه؟ أم أن تلك العجوز هي التي نجحت في سرقة سعادتهما بتمتماتها وبنظراتها المريبة.. وأفقدت علاء شعوره بقرب أناغيم.

أليست ممن يكثرون زيارات الأضرحة ويقدّمون القرابين لصلاّح المدينة؟.. أليست تحرس أولادها ومن تحب بحجب الحب وتمائمه وأشياء من التِوَلَة؟ أو ليست تستعين بالتعويذات لإلحاق الضرر بمن تكره.. كما قالت أناغيم أو لمّحت إلى ذلك ببعض الكلمات قبل بدأ المسرحية؟

ارتفع الصراخ في القاعة فجأة بعد أن غادر عشرين شابا منصة العرض.. تاركين ساعد منفردا وقد انهال عليه جمع من الرجال بالسكاكين يقطِّعون جسده، وكأنهم يتقربون به لإله الشرف.

وتحولت حينها قشعريرة علاء إلى عرق بارد.. وهو يرى حسناءً تُلقي بجسدها من على شرفةٍ شاهقة

لتَلقى مصير ذلك الشاب.. الذي كان يردد في رمقه الأخير "نجمة يا نجمة ما بقالك صواب فلوم عليا".

التقت حينها دماؤهما على سجّاد واحد وجسديهما كذلك للمرة الأولى والأخيرة قبل الموت وأسدلت الستائر بعدها سريعا وأُشعلت الأضواء.

أضواء وأضواء.. وعلاء لا يزال يرى لون السواد في عتمته الداخلية، وفي ذلك الدم الذي يتحول لونه سريعا من الأحمر إلى الأسود، ظل مغمض العينين لكي لا يواصل ذلك الدم تذكيره بفجيعته الكبرى، ووجد في تلك العتمة ملاذا يفر فيه من ذِكراه إلى تساؤلاته علّه يجد جوابا لشيء منها.

هل الاستعانة بتعويذات السحر وبتراتيله الخفية على الإيقاع بالآخرين في الحب فعّالة؟ وهل هي من صميم الحب أو درب من دروبه في مجتمع محب سرقت منه الوصايا كما الكلمات؟

و هل أم أيمن مخطئة في طريقتها الخاصة في التعبير عن حبها لأبنائها.. وعن خُلُوّ هذه الطريقة من العبارات المفهومة؟ فهي دائما ترتل سحرا لحماية أبنائها وتهمهم سحرا لينالوا، سحرا ليجدوا مناصب عمل، سحرا لتُزَوّجهم بمن شاءت، وسحرا ليُرزقوا الأطفال أيضا...

أليست في النهاية تحب أبناءها وتريد لهم كل خير؟ وإن لم تعبر عن حبها لهم صراحة، فهل يعقل أن تلام على فعلها ذلك وهي لا تجيد غيره؟ أو هكذا توارثت الحب وبهذه الطريقة السرّية تعبر عنه.

هل يلومها على ذلك وهو أيضا يرتل أشياء خفية من تراتيل المالوف والحب كلما رأى أناغيم؟ والفرق بينه وبين أم أيمن أنها رتلت شيئا من سحر الحب وليس المالوف والحب، ثم أليس المالوف سحر أيضا.

قامت أناغيم من مقعدها ونظرت إلى الكراسي الخلفية لتتفقد أم أيمن أو لتتأكد من مغادرتها، كأنها تعلم مسبقا أنها ستغادر قبل انتهاء المسرحية، حينها ابتسمت وهي تلتفت لعلاء وتخطو خطوة باتجاهه لطي تلك المسافة التي تفصلهما.

وجدته جالسا على كرسيه مغمض العينين وهو يحرك شفتيه، وضعت يدها على ظهر كرسه لتجعل جسدها يترنح على أرجوحة الحب قربا منه علَّها تسمع ما يقول، فبدا لها أنه يردد شيئا من نص المسرحية ومن أغنية البوغي.

"وانـا بالبـغية تقوى غـرامي

أهلكـني يا سابـغ الشـفر

تحزمت وقلت يا مغيث يا ربـي
سلتك بحـرمة النـبي الهـادي
وإذا نفذ قطاك من حكمك اصبر
والسابق في الجبين مكتوب ينادي
الله يا سود الريامي"

***

همست في أذنه:
- علاء هل أنت بخير؟
فلم تلاحظ أي استجابة منه.. فجعلت همسها نداء ورفعت نبرة صوتها في المرة الثانية وهي ترى العرق يتصبب من على جبينه؟.. فتح عينيه على ندائها الثالث وأخذ نفسا عميقا كمن يستفيق من حلم مزعج.
أرادت أن تستفسر عن حالته هذه وهي تستقيم واقفة، هل يعاني من مرض عضال ما أو ربما مرض نفسي؟ ولكنها وجدت في نفسها حرج من هذا السؤال فاكتفت بابتسامة عريضة بادلها بمثلها.
همَّ أن يسألها عن أم أيمن وعن سر مجيئها معها ثم خروجها قبل انتهاء العرض بعد كل تلك النظرات والتمتمات المريبة منها، وعن علاقتها بها، وعن كل

الذي دار في ذهنه عنها أثناء عرض المسرحية، لكنه لم يملك الجرأة على مواجهتها بتلك التساؤلات.

فبادرته أناغيم بالسؤال قائلة:

- علاء هل أعجبتك المسرحية وما رأيك فيها؟

شعر علاء بالحرج من سؤالها هذا فهو لم يشاهد المسرحية إطلاقا وذهنه كان غائب تماما.. ولم يرى منها غير المشهد النهائي، فقال مستعينا بهذا المشهد:

- أعتقد أن المُخرج كان مخطئ في جعل نهايتها حزينة.. لو اختار لها نهاية أخرى لكان أفضل.

فردت عليه قائلة:

- هذه المسرحية ليست من تأليف أي كان.. وإنما هي من تراث هذه المدينة ولا يمكن للمخرج أن يغيّر شيئا من أحداثها، لا يمكن أن يتلاعب بوقائعها ويغيّر الحقائق لتناسب أذواق الناس.

أجابها بقوله:

- إن لم يكن المخرج هو المخطئ فأعتقد أن نجمة قد أخطأت في قتل نفسها.

فردت عليه بحماسة غير مبررة وهي تحرك يديها لمزيد من الإقناع، وكأنها كانت تحدثه عن نجمة وعن نفسها في الوقت ذاته، أو على الأقل كانت مقتنعة بفعل نجمة فقالت:

- لا شك أنها كانت مخطئة ولكن لكل فعل أسبابه، فنجمة حاولت أن تُعبِّر عن شيء ما بفعلها هذا دون أن تتكلم.. لاعتقادها أن الكلام قد لا ينفع أو أنها تخشى أن تتكلم لدرجة ترى فيها أن خروج الروح من الجسد مع كل تلك السكرات.. أهون من المواجهة وخروج ما خفي مع خروج الكلمات، ولكل انتحار في هذه المدينة سبب ما قد لا يكون مقنعا لأي أحد، ولكنه على كل حال أقنع الفاعل.

أراد علاء أن يقول لها وما هو هذا السبب المقنع الذي دفع نجمة للانتحار؟ ثم تذكر أنه سمع من قبل أغنية البوغي كاملة في أحد أعراس الجيران وأنه يعرف شيئا من تفاصيل الحكاية، وأن الحب الصامت هو الذي دفع نجمة للانتحار.. حين اصطدم حبها بالدين وبالعرف ومس الشرف.

بل هو سبب انتحار ساعد أيضا حين جاء للغناء في حفل ختان ابن حبيبته نجمة ولم يكتفي بذلك فقط بل ذَكَرَ اسمها أثناء الغناء أيضا، فكان هذا انتحارا ولكن بأيادٍ أخرى.

فضل علاء أن لا يسأل أناغيم عن سبب انتحار نجمة لكي لا يجد نفسه مرغما على الحديث معها عن

الحب، بل قرّر أن لا يسألها عن أي شيء في هذه المسرحية فكل شيء فيها سيدفع بهما إلى ذلك.

أخذ وقت أطول قبل أن يرد عليها وقام من الكرسي الذي كان يجلس عليه ليسمح لها بالجلوس.. ثم جلس هو على كرسي مجاور لها في نفس الصف.. وترك بينهما كرسيا شاغر، لم تملأ أناغيم ذلك الكرسي الشاغر.. ربما لأنها فهمت أن علاء لا يريد منها أن تقترب أكثر من جسده، وفضّلت الكرسي الذي كان يجلس عليه ففيه شيء من أثر ذلك الجسد.

فقال لها ليبعدها عن أحاديث الحب تماما:

- قُلتِ أن لكل انتحار في هذه المدينة سبب ما قد لا يكون مقنعا لأي أحد ولكنه على كل حال أقنع الفاعل، فما هو سبب انتحار **(لمين مرير)** العالم في الفيزياء النووية من جسر ملاح سليمان.. في يوم العلم 16 أفريل وفي مدينة سيرتا مدينة العلم والعلماء؟

فأجابت ودون مقدمات:

- السبب هو الحب.. هو الحب الصامت.

وكأنها وهي تنطق أحرف تلك الكلمة تريد أن تردّه إلى الشيء الذي حاول الابتعاد عنه أو أنها ما جاءت به ليشاهد هذه المسرحية إلا للحديث معه عند انتهائها

عن الحب، ولو من باب الحديث عن حب عابرٍ يكون جسرا للحديث عن حب حاضر.

و عم بعد ذلك السكون الذي لا يفتقد إلى الكلمات فقط.. بل إلى النظرات الجريئة والأقل جرأة والمختلسة وأنصافها أيضا، فقد استحت العيون أن تلتقي مجددا في حضرة كلمة محظورة وأن كلا منهما صار يشعر بوزر ذنب آخر غير اللقاء المدبر، ولم يكن أمام أناغيم إلا أن تكمل كلامها للخروج من حرج هذا الموقف فقالت:

- لقد فرّ لمين مرير من أمريكا متحايلا بشهادة وفاة أبيه المزوّرة.. وجاء ليخدم الوطن وليصرّح بحبه له، ولكن الوطن لم يبادله الحب ذاته.. إذ تكرم عليه بعد طول عناء بمنصب في مصلحة الأرشيف بمحافظة الغابات وفشل الوطن في احتضانه فاحتضنته صخور قسنطينة.

ووحدها صخور الكلس وصخور واد الرمال وافقت على أن تستمع لتراتيل حبه وهو يلقي بجسده إليها.. وأن تضمه إليها الضمة الأولى والأخيرة بكل جنون.

فمات العلم مرتين وبقي حب الوطن معلقا بالصخور مغروسا في الأصلاب ومزروعا في

الأرحام يأبى الموت.. في وطن قد يكون مجرد الحب فيه جريمة.

واصلت أناغيم حديثها بِنَهمٍ عن ذُل عالِمٍ وابنٍ بار.. يستطيع أن يفرّق النواة عن بعضها البعض وعن عِزٍ مسؤول جاهل.. لا يستطيع أن يفرق بين القرآن والشعر، حينها توقف علاء عن الإنصات لها فقد أدمى كلامها قلبه وفهم ما يكفيه.

فهم أن الذي يقتل ويدفع للانتحار في هذه المدينة وفي هذا الوطن منذ الأزل هو الكتمان والحب الصامت، وأَن الذين ينتحرون إنما يفعلون ذلك لتكون لهم فرصة للصراخ ورفع الصوت والجهر بالحب.. دون خوف ودون مراعاة لأي أحد ولو لمرة واحدة وأخيرة، فمتعت التصريح والبوح بالحب ولو كان صراخا تساوي الحياة كلها.

استمرت أناغيم تتحدث إليه وكان هو يتساءل في سكونه خفية هل يمكن أن يكون حب فلسطين هو الذي قتل أمي وتسبب في إعاقة أبي وأصاب إخوتي بالجنون؟ هل حب فلسطين وإعلان قيام دولتها من أرض الجزائر ذات مساء من شهر نوفمبر 1988م هو الذي قتل مائتي ألف جزائري؟ فليس بين هذا الإعلان وإيقاظ الفتنة في الجزائر إلا القليل من الوقت، فهل هي

صدفة مظلومة أم أنها ضريبة أن تكون مع فلسطين ظالمة ومظلومة؟

أم أن الإرهاب الهمجي الذي تغذيه الأيادي الخارجية لا يعرف الحب.. وهو الذي فعل كل ذلك، هو الذي فعل بالجزائر في عشرية سوداء ما لم تستطع أن تفعله فرنسا في ثلاثة عشر عشرية لم تقل سوادا.

فحمل الأخ الأصغر السلاح في وجه أخيه الأكبر بعد أن كان يناديه (دادة) كما ينادي أخته الكبرى (لالّة)، ووُضع السلاح بعدها ووُضعت معه عبارات الاحترام هذه، لتحل محلها عبارات ازدراء وتهكم.. فقيل للأخ (شركي) وللأم (لعجوز) وللأب (الشايب).

قُتل الخُلق قبل قَتل الخَلق.. واستبدل الرجال لباسهم وبرنوس (الرّجالة).. زيغود يوسف، ورابح بيطاط، وعبد الحفيظ بو الصوف بألبسة أفقدت الرجال حضورهم الرجالي، وغيّرت النساء الملاية القسنطينية المحتشمة بألبسة هجينة تزداد تكشُّفًا كلما ازدادت عصرنةً.

ولم يعد من السهل التعرف على الجزائري عامة وعلى القسنطيني خاصة، فلم يبقى له ما يميزه عن الآخرين إلا لغته العربية التي صارت تحتاج إلى ترجمة ليفهمها العرب.

وسارع المسؤول ليتدارك الأمر بترجمة المسلسلات المكسيكية للعربية الفصحى، ليُعلم الشعب كيف تُنطق أحرف اللغة، وكيف تتكاثر الضفادع في مياهها العكرة دون وثائق ثبوتية للهوية، وكيف يترك الشعب الحب العذري العربي الرجعي.

توقف علاء عن أحاديثه الخفية وعاد ينصت لأناغيم مجددا فوجدها تتحدث عن قُلة فخارية قُذف بها رأس **مالك بن نبي**، ربما لأنه لم يرد أن يحطم رأسه على صخور قسنطينة.. وحينها لا بد أن يكون هناك من يحطم له رأسه بشيء من فخار المدينة وصخورها، ولِيُمنح بذلك ابن نبي فرصة أخيرة للجهر بالحب أيضا، وما آلمته الضربة المميتة تلك فقد كان يعلم أنه "سيعود بعد ثلاثين سنة" كما كان يردد دائما بنبرة ونبوءة غريبة.. وقد عاد ولكن آلمه موت فكره في بلده وقد حيِيَ به أكثر من بلد.

ولعل مالك كان محقا حين قال:

- "أنا على يقين بأن الحقد الحيواني المحيط بي لن يخبو حتى بعد موتي، إنني أشعر بأن السيد (س) سيبحث عن أبسط آثار كتاباتي.. خاصة دفاتري التي هو على علمٍ بوجودها، سيبحث عنها حتى في أحشاء أولادي كي يمحو كلّ آثار فكري".

ثم تعود أناغيم مجددا لتكمل حديثها عن لمين.. وأنه لو ظل حيا ربما لم تكن لتنتفع به الجزائر بقدر ما ستنتفع بموته نفوس الجزائريين لتصحا من سكرتها، وما موته إلا موجة بحر حرية سبقتها موجات وتتبعها أخرى، تتكاثف لتصير سيلا عَرِم يأتي على من في السد العالي.. وعلى السيد سين وأصحابه.

تقدم منهما حارس المسرح ليقطع بذلك كلامها عن أبناء المدينة البَرَرَة، طالبا منهما المغادرة ومعتذرا بأنه سيغلق أبواب المسرح.

حينها نظرت أناغيم إلى ساعة يدها.. فتغير وجهها، وقامت تَسحب جسدها عن ذلك الكرسي كما تُسحب روح الكافر.. تريد البقاء ولا يمكنها ذلك، فللأعراف قضاء أقوى من قدر الحب ولا يمكنها أن تقف في وجه قوة الأعراف وأن تظل مع شاب غريب والشمس تكاد تغرب.

- علاء عليّ أن أغادر الآن لقد تأخر الوقت.

هذا كان آخر كلامها قبل أن تبتعد عن علاء.

شعر وهي تغادر بأنها لم تكن تحدثه بل كانت تراقصه.. وأن الساعة هي الثانية عشر ليلا وليست السابعة مساءً وأن المسرح هو قصرهما.

بدت له أنها تكشف عن ساقيها وهي تُشمِّر على فستان عرس أبيض مسرعة في المغادرة وربما لم يكن فستانا ولا أبيضا، ولكنَّ الشمس نسجته بخيوطها البيضاء وهي تنكسر، تذبل ثم تذوب لتلتحم بجسد أناغيم.. كل ذلك حين تسللت أشعتها من باب المسرح لتسترق النظر إليهما.. مختبئة خلف صخور الكلس الشامخات قبل غروبها كما استرق الحارس السمع من خلف كراسٍ شاغرات.

تمنى علاء فجأة أن يكون هو تلك الخيوط البيضاء التي تستطيع أن تلحق من شاءت.. وتضم وتلتحم بأي جسد شاءت.

تمنى أن يقع حذاء أناغيم على سلالم المسرح قبل أن تختفي وهو يحاول اللحاق بها، ولكن لم يحدث من ذلك شيء.. حتى العربة التي أقلّتها إلى المسرح غير موجودة أمام بابه.. فقد غادرت أم أيمن بسيارتها قبل انتهاء المسرحية تاركة أكثر من سؤال دون جواب.. كما تركت أناغيم لديه أكثر من حب ورغبة ومزيدا من الكتمان.

غادرت وهو لا يدري هل احتالت عليه بدعوتها المفخخة التي أشعلت نار الحب في صدره.. أم أنها لم

تكن محتالة، المحتال هو الذي أقلّها عند انتهاء المسرحية.

إن كانت هي قد عرفته من باب سيارته المواربب ومفاتيحه التي يلوّح بها، فكيف عرف هو أنها ستخرج في تلك اللحظة بالذات؟ وكيف جعلها تركب بتلك السرعة؟ ثم كيف اختفى فجأة وقبل أن يصل علاء إلى باب المسرح؟

المشهد السادس: حلم البوح بالحب على مسرح النسيان

اقتباس من النص

((الوصول إلى ملكوتات الحب والجنون لا يلغي الخوف وإنما يجعله منفصلا عن الجسد.. كما يجعل الجسد منفصلا عن الواقع، فالمجنون وحده هو الذي يمكن أن يتذكر حبيبته في أشد لحظات خوفه على ذاته، ووحده الحب الصامت يوصل إلى مثل تلك المقامات والملكوتات)).

عاد علاء إلى البيت متعبا بعد أمسية ساحرة قضاها مع أناغيم.. والقلب أعيته الأمنيات التي تطير على بساط الحب، بالكاد كانت قدماه تحملانه وهو يسير في تلك الأزقة التي تقود إلى البيت والتي غابت فيها أناغيم، غابت أشعة الشمس أيضا خلف صخور الكلس وغاب بعدها قرصها.. والأسئلة في ذهن علاء لا تعرف شيئا اسمه المغيب.

وقف علاء أمام البيت فَفُتح بابه دون أن يطرقه فالجميع كان في انتظاره، رفع رأسه قليلا ليجد والده عن يمين الباب متكئ على عصاه وعلامات الغضب بادية على وجهه، وحمزة يسد ما تبقى من مدخل البيت.

ازدرد علاء ريقه وخفض بصره.. فهو يعلم أن مغادرة حمزة للثكنة العسكرية ومجيئه إلى البيت يعني إقامة محكمة مصغرة.. وعادة ما يكون هو المتهم الوحيد.

لا تخرج هذه المحكمة بنتائج مهمة أو هكذا تبدو لعلاء، هي تبدأ بالصراخ ويتكلم أثناء النقاش الجميع في آن واحد.. وتنتهي كما بدأت، ومن يصرخ أكثر يكون أكثر إقناعا، ويجب على علاء أن يجيب على كمٍ هائل من الأسئلة بالصراخ أيضا، أو على الأقل عليه

أن يستمع.. فقد لا تتاح له فرصة كافية ليجيب على سؤال واحد.

مع مرور السنوات أصبحت هذه النقاشات أقل صخبا.. فقد كبر الأب ولم يعد يطيق رفع صوته.. وعلاء وجد في الصمت أكثر من جواب على كل سؤال، ولم يبقى أحد يجيد الصراخ من أفرد هذه الأسرة غير حمزة، وربما صراخه في البيت هو متنفسه الوحيد.

أطلت أُخْتَيْ علاء ضاحكتين من تحت ذراعيْ والديهما.. فابتسم لهما علاء ابتسامة ساذجة وهو يلقي السلام ليمتص قليلا من ذلك الغضب.. ومدّ يده ليصافح أخاه الذي طال غيابه ثم أعاد سحب يده لامتناع حمزة عن مصافحته.

أخذ يتسلل من بينهم جميعا إلى داخل البيت، يمشي بخطوات متثاقلة وهو يحرك عينيه يمينا وشمالا.. كأنه ينتظر كلمات أو أسئلة أو أي شيء يطوي ذلك السكوت المريب، وقبل أن يبتعد عنهم ليصل إلى غرفته.. شعر بيد توضع على كتفه وتسحبه إلى الخلف بخشونة ما، حينها التفت علاء وهو يقول:

- خِيرْ إنْ شاء الله.

فرد حمزة في عصبية والكلمات تفلت منه، أو أنها كانت تتدفق من فمه مسرعة وهو يقول:

- أي خير هذا الذي تتحدث عنه؟ وهل يأتي الخير من النوافذ؟ وماذا سيقول الجيران عنا.. وهم يرون تصرفاتك المجنونة؟ ولن يكونوا مخطئين إن قالوا مجنون.. فلا يصمت ويعتزل الناس وينفرد بنفسه في واد الرمال غير المجانين.

طال كلام حمزة وكثرة أسئلته.. ولكن علاء لم يجبه ولم يَرد عليه.. بل لم يكن يصغي لكلامه، كان يتظاهر بالاستماع فقط لكي لا يستفز أخاه أكثر.. وينتظر في الوقت ذاته إنهاء حمزة لكلامه ليتجه بعدها إلى غرفته، ولكن الصمت كان أكثر استفزازا لحمزة من الكلمات.. فسحبه حينها إليه بقوة قائلا:

- قل لي ماذا تفعل في واد الرمال؟

أراد علاء أن يقول لحمزة وهو يشعر بألم قبضته.. شغلتني آلة تجيد الاستماع وتُمتع حين يُعزف عليها.. وأحببت امرأة تعزف خيرا من الآلة ووحدها تحرّك أوتارها.. دون أن يملك الجرأة على قول ذلك.

و قبل أن يتكلم علاء ليدافع عن نفسه.. كان حمزة لا يزال يجرّه إليه من تلابيبه ويواصل تساؤلاته، ومع كل سؤال يحرّكه بقوة:

- لما كل هذا الصمت والحزن والخوف في البيت؟ لما تعيشون على ذكراكم الأليمة؟ لما تقتاتون من مزبلة الماضي؟ متى تستفيقون؟.. وأنت بالذات يا علاء متى تستفيق؟ ومتى تضحك؟ متى تخرج من قوقعتك؟ ألا ترى أنك تخطو خطوات صريحة نحو الجنون؟ ستكون رقما آخر في سجلات الجنون لهذا الوطن، ألا ترى ما حل بأختينا؟

شعر علاء برغبة ملحة في البكاء وإن جف دمعه.. وبرغبة في الصراخ وقد ضاق صدره، لحظتها انتزعه والده من قبضة أخيه.. بينما كانت الأختين تضربان حمزة وتلقيان عليه بأي شيء وقع في يديهما من أواني البيت، تبكيان حينا وتضحكان حينا آخر.

جلس علاء على الأرض يسترجع أنفاسه وينظر إلى حمزة بطرف خفي، يريد أن يقول له أي شيء ليغيظه وليجعله يسكت.. فحمزة لازال يواصل كلامه أو صراخه دون توقف:

- أفنيت عمري لأجلكم وفي خدمتكم ولم أجني من ذلك أي شيء، لم أدخر جهدا لألبي كل حاجياتكم ولأُخرج الحزن من هذا البيت، لم أتزوج لكي لا أضيّعكم، حملت همكم جميعا بعد موت والدتنا ولم أرى خيرا.

فرد علاء عليه وقد فاض قلبه قائلا:

- أنت لم تفعل شيئا ولن تفعل فوالدتنا ماتت بسببك، ما كان لك أن تأتي تلك الليلة.

سكت بعدها الجميع لبرهة بدت طويلة.. ونظر الجميع لعلاء دون أن يقول أحدهم شيئا، أو أن كل واحد منهم شعر بشيء ما.. ففجيعتهم واحدة، هُم جميعا في حاجة لبكاءٍ متجدد دون أن تسعف أحدهم لحظتها دموعه، وأشدُ الألمِ أن تشعر برغبة في البكاء دون أن تملك القدرة على ذلك.

لم يدم السكوت طويلا فقد عاد الصراخ مجدد.. والكل يصرخ عويلا بعد أن سقط علاء أرضا.. وسال الدم من فمه لقوة اللطمة التي تلقاها من حمزة، لطمه بكل قوته وبكل حرقة سنين عمره التي قضاها في خدمة إخوته ووطنه.. دون أن يُنصفه أحد، ودون أن يكون له بيته الخاص الذي تمناه طويلا.

بيتا يجمعه بامرأة أحبها وأحب أن يكون له منها أبناء يلاعبهم.. لكن القانون حال بينه وبينها، لم يكن أمامه إلا أن يترك عمله ليتزوجها.. لكنه لم يفعل ذلك لكي لا يضيّع إخوته، ولكي لا يصيبهم الفقر فهو معيلهم الوحيد، ولم يجد في النساء حبيبة أخرى عوضا لها تُرضيه ويرضى عنها القانون.

ربما كان ينتظر من علاء أن يكون المُعيل الجديد للعائلة.. ليستقيل هو من عمله في الجيش لعله يحقق حلمه بالزواج من المرأة التي أحبها.. قبل أن يخطفها القدر منه نهائيا، وغاظه من علاء أن رآه مشروع مجنون وليس شيئا آخر يتمناه.

هذا الذي أراد أن يقول حمزة لأخيه علاء دون أن يقول ذلك.. ودون أن يكون له الجرأة ليعبر عن مشاعره الخفية، أو ربما الوقاحة لينطق كلمة الحب بكامل حروفها داخل البيت.

لطمه بكل تلك الحرقة وبكل مشاعر الحب والحرمان، وسال مع الصراخ الدمع الذي لم يجد له مخرجا، وبكى الجميع بلغة يفهمها الجميع، وربما أفاضت قطرات الدم التي سالت من فم علاء كل الكؤوس البائسة.. التي يذكّرها الدم برعبها القديم.

حتى الأختين المجنونتين بكتا بحرق العاقلات بكاء لا يشبه بكاء المجانين.. على بيت مشتت وحب ضائع وحبيب غائب لن يسترد، على الصمت الذي طال أمده وعلى كلمات الحب المظلومة والمتهمة في آن واحد.. وعلى وطن سرقت فيه الأحلام.

قام علاء يركض مسرعا واضعا يده على فكه يمسح دمه، ويسحب مقبض الباب باليد الثانية، خرج

من البيت يريد أن يبقى منفردا أو يجالس شخصا يفهمه دون أن يقول له شيئا.. شخصا يكون بمثابة اليد الثالثة التي تُضمدُ جرح فؤاده الأزلي الذي لم يلتئم بعد.

شخصا قادرا على جعله يبوح له بكامل أسراره بعيدا عن قيود اللغة وحدودها.. خارج حصار أحرف كلماتها، شخصا يُخرجه عن صمته.. هو لا يدري كيف يخرج عن هذا الصمت؟ كيف يواجه خوفه؟ كيف يعلن على حبيبته الحب؟ ولا كيف ينسى ماضٍ يؤلمه؟

لم يجد مكانا آخر يذهب إليه غير واد الرمال، أو أنه لا يدري كيف وصل إليه في تلك الليلة؟ وكأنه بذلك كان يبحث له عن إجابة لسؤال أخيه، (لما تتردد على واد الرمال)؟ .

وربما كان يعرف الإجابة هو فقط يريد أن يتأكد هل الأمر يستحق؟ وهل الكمنجة تستحق كل ذلك الحب.. وأن يُؤثرها لوحدها بتمام القرب؟

هل هي الشخص الذي يبحث عنه وليست أناغيم؟ أم أنه يشعر بقرب أناغيم حين يحمل الكمنجة ويضمها أكثر مما يشعر بقربها حين تكون أمامه؟ فهي تتجسد له في الكمنجة بكامل تفاصيلها.. ولحظتها لا يعجز عن قول ما يحب قوله لها.

الكمنجة هي الوحيدة التي يتكلم أمامها بحرج أقل، وقبل أن يقول أي كلمة تفهمه.. فهو يحدّثها حين يلامس خشبها الناعم، ويهمس لها بالقول حين يميل برأسه على عنقها الطويل.

يصرخ أمامها حين يعبث بتضاريسها وانحناءات هيكلها.. يضمها إليه وترد عليه آهات ونوتات وأنغاما.. كلّما داعبت أصابع يده أوتارها.

هي الوحيدة التي جرّب البكاء والنحيب أمامها بصوت مرتفع ودون كلفة.. كما يبكي صغير في حضن أمه، ووحدها تَبكيه وتُبكيه دون حاجته لطلب ذلك.

هي تستحق أن يزورها كل مرة.. حتى في تلك الليلة الموحشة التي تسللت إلى سمائها غيوم سوداء أطفأت السراج وأخفت النجوم، وعمّ الظلام والغيوم تلقي بجسدها على جنبات المدينة.. كلحاف أُلقي على سيرتا ليغريها بلزوم سريرها، وقد اعتادت قسنطينة على النوم باكرا ولو من دون لحاف.

كيف وصل إلى ذلك المكان وفي ذلك الظلام الدامس بالذات؟ تساءل لحظتها وقد شعر بالرعب.. هل الذي أوصلني إلى هنا هو ذاك الذي يسمونه في التراث

الشعبي حمار الليل؟ أم أنه عَمى الحب الذي يجعلك تبصر في الليل وتسير فاقدا للعقل.

هو لم ينتبه إلى أنه توسط درب السياح في واد الرمال إلا على خيوط البرق الذهبية التي أنارت بعض جنبات المدينة.. وانكسرت على صخور الكلس عاجزة عن الغور إلى أعماق ذلك الوادي.

ربما ليست تلك الخيوط المضيئة هي التي جعلته ينتبه ويشعر بالرعب.. هي لم تصل إلى المكان الذي وصل إليه.. وإنما هو دوي الرعد الذي اهتزت له جنبات الوادي ودفع الغربان والطيور لتغادر أكنانها.. قبل أن يرد الوادي بصدى أكبر من هزيم الرعد.

حينها فقط تذكر علاء ذلك الكائن المخيف الذي يسكن هذا الوادي، تذكر حركاته الخفية من وسط الأحراش.. وكلماته المسموعة حينا والغامضة أحيانا أخرى.

يقترب منه حين يعزف على الكمنجة لدرجة يشعر فيها بأنفاسه ويسمع همسه.. ثم يبتعد عنه حين يترك علاء العزف، كأنه يشاركه الحب ذاته لذات المحبوب.

كان علاء يتجاهل كل ذلك ويخفي رعبه وخوفه من ذلك الكائن في النهار لكي لا يفسد عليه متعة قرب الكمنجة، أو ربما كان بذلك يمرّن نفسه على مواجهة

خوفه.. ويشبع فضوله مستأنسا بضوء الشمس، فهل يمكنه أن يتجاهله في عتمة الليل ودون أنيس؟

ربما كان يعلم ذلك الكائن مدى خوف علاء منه في تلك اللحظة التي توقف فيها عن الحركة وسط الوادي، فأخذ يقترب منه ببطء شديد ليخيفه أو ليأنسه.. أو قد يكون سبب الاقتراب شيء آخر.

لم يطل الوقت حتى بدأ علاء يسمع صوت ذلك الكائن، بدا له أنه صوت أنثوي يزداد وضوحا شيئا فشيئا، لكن الذي أذهل علاء وهو لا يزال واقفا مكانه.. ليس الصوت.. وإنما اختفاء شعوره بالخوف فجأة.

كان يسمع في تلك العتمة ومن خلف ذلك الصوت.. كلمات أناغيم وضحكاتها التي تشبه العيد، وليس في العيد شيء مخيف.. حتى القتال يأخذ إجازته يوم العيد في البلدان العربية.

لم يعد علاء يحس بالخوف ولا بالخطر تماما، وربما هو ذلك الذي أزعج الكائن الغريب فقام يتجسد للمرة الأولى أمامه.. عساه يفلح في إعادة الخوف إلى قلب علاء.

تجسد في صورة نار أو قبس من نار أو في جسد امرأة مشتعلة.. لا تقف على الأرض وليست تطفئها قطرات المطر النازلة من السماء.. بل تتغذى من ذلك

الماء لتستحيل جسدا لكائن حي، ولكن علاء لم يكن يرى النار الحارقة.. وإنما كان يرى من خلف شرارها المتطاير ملامح حبيبته.

وصل إلى أعلا ملكوتات الحب والجنون التي لا تلغي الخوف، وإنما تجعله منفصلا عن الجسد.. كما تجعل الجسد منفصلا عن الواقع.

المجنون وحده هو الذي يمكن أن يتذكر حبيبته في أشد لحظات خوفه على ذاته، حتى على أرض المعركة وحين تنهال الرماح والدماء تُخفي لمعان السيوف في أيدي الرجال، يرى العاشق المجنون في السيوف الملطخة.. ومن خلف تلك الدماء لمعان ثغر حبيبته، ولحظتها يتمنى تقبيل تلك السيوف بدل تكسيرها.

فهل هذا الذي خشي حمزة على أخيه علاء؟ أم أنه ليس الجنون الذي يُذهب العقل هو الذي أوصل علاء إلى هذا؟ وإنما هو الحب الصامت الذي يفصل الروح عن الجسد، فالروح ترتل حبا والحواس تأبى أن تفعل ذلك.

لم يعد في واد الرمال شيء مخيف بالنسبة لعلاء، ولا شيء مخيف في صوت ذلك الكائن ولا في همسه وأنفاسه.. ولا في حركات جسده أيضا، ليس فيه شيء

مخيف ما دام علاء يستطيع أن يرى الأشياء على غير ما هي عليه.

لم يُرد هذا الكائن أن يبقى علاء في واد الرمال فأخذ يدله على طريق العودة، ربما شعر بأنه يفقد ذاته وهويته بفقدانه للقدرة على إخافة الآخرين، أو أن الخوف تسلل إليه فجأة، فإن لم تكن مخيفا.. سوف تخاف، والخوف لا يقبل أن يَسلم الجميع منه.

لذلك كان يجب على علاء أن يغادر لتُبقي هذه الجنية على هيبتها في نفسه.. وعلى انفرادها بامتلاك القدرة على إخافة الآخرين في وطنها، لا تريد أن يقاسمها أحد هذه القدرة.

أو أن هذه الجنية كانت تحمل مشاعر ما اتجاه علاء.. واتجاه ذلك العازف الذي يشاركها حب الكمنجة.. وحب درب السياح وطنها ومسكنها الأزلي، لذلك لم تُرد أن يبقى علاء في هذا المكان لكي لا يصيبه مكروه وقد اشتد المطر والبرد.

ارتفعت تلك النار وتلك الجنية عن الأرض وتطاول لهيبها.. فشعر علاء بدفء يسري في جسده.. استسلم له وهو يتسلل إلى عروقه، وأنارت له تلك الجنية جنبات الوادي، فرأى سلالما حجرية لم يكن قدر رآها

من قبل.. تقود لأبواب حديدية مغلقة بالسلاسل والأقفال و(كادنات) البرلمان.

سمع صوت ما.. ربما هو صوت تلك الجنية وهي تحدثه عن تلك الأبواب المغلقة.. والتي تقود لمغارات وكهوف المدينة، ومنها سراديب توصل إلى وسط المدينة، أغلقت فرنسا بعضها خوفا من المجاهدين، وأغلقت الجزائر المستقلة ما تبقى منها في العشرية السوداء خوفا من الإرهابيين.

الخوف وحده هو الذي يجعل أحدهم يكثر من استعمال (الكادنات)، وجعل شعبا بأكمله يتخلى عن (الكلات) التي تفتح بمجرد الدفع عليها.

فُتح لعلاء لحظتها باب حديدي وأزيلت عنه السلال والأقفال.. ودخله ليمر منه إلى إحدى تلك المغارات العجيبة.. التي اختزلت له تاريخ قسنطينة وشم عبق سيرتا القديمة.. وهو يسير فيها بخطوات توافق نقر قطرات الندى النازلات من سقف المغارة على برك الماء.

سرعان ما وجد علاء نفسه أمام باب آخر محكم الإغلاق.. وما كاد يضع يده عليه حتى فُتح له وخرج منه إلى شارع طاطاش بالقاسم.

ابتسم وهو يرى ضوء مصابيح المدينة مجددا.. وإن كانت أرجاؤها خاوية كما هي عليه أسفلها، التفت خلفه باحثا عن ذلك الكائن ليجده قد اختفى.. وعن تلك النار ليجدها قد خبت، وعاد الباب كما كان عليه مغلقا بالسلاسل والحديد.

نظر علاء إلى أسفل واد الرمال من على حافة إحدى صخور الكلس من الجانب الآخر للطريق نظرة أخيرة وهو يفكر في أم أيمن، لا يدري لما تذكرها في تلك اللحظة بالذات، وهل لها علاقة بالذي رآه؟ أم أنه لم يرى غير الأوهام؟

ترك التفكير في أم أيمن إذ أنساه سحر الطبيعة سحرها وتمتماتها.. وهو يمعن النظر في تلك الجسور الرومانية التركية الفرنسية التي نامت فوق بعضها البعض.. أسفل جسر باب القنطة.. كصفحات لكتاب كبير من كتب تاريخ المدينة.

كل ذلك انفرد به المنحرفون وأصحاب الرايات الحمر.. وحدهم جعلوه لهم وكرا، وأغلق المسؤول الأبواب التي توصل إلى ذلك العالم الآخر، ربما خوفا على القسنطينيين من جمال الطبيعة القاتل، أو أن شيئا آخر كان يخيفه غير جمال الطبيعة ومكر الجنيات في الوديان.

بدأ علاء بالركض عائدا إلى بيته فقد شعر بالبرد يسري مجددا في جسده.. ويلاصقه كما لاصقته ثيابه المبللة.. بعد أن غادرت تلك الجنية الدافئة، أو أنه بدأ بالركض لأنه استعاد قدرته على الخوف من تلك الجنية.. ومن كل ذلك السكون في المدينة.

سكون.. سكون.. وإن رأيت شيئا ما يتحرك ليلا في أحد شوارع قسنطينة فلا بد أنه أحد المحتالين أو **(frauder) أو كلونديستان** قد يكون في مهمة إيصال مريض ما، ربما هي امرأة ستضع مولودا جديدا، وقد يكون مسافر.. أو معزوم على أحد الأعراس أدركه منتصف الليل.. فقد أنساه سحر المالوف أن ينظر إلى ساعة يده، وقطاع النقل ينام باكرا.

ينام بعد دوام واحد متواكلا على قطاع آخر موسوم بالاحتيال ولكنه أكثر حضورا في الأوقات جميعا.. وفي الأعياد وعند تساقط الثلج والأمطار وفي كل ليالي المدينة حين يخلو كل حبيب بحبيبه، حتى قطاع النقل عندنا يبدو أن له حبيبة يتسلل إلى مخدعها سرا ومسرعا.. مع آخر خيوط الشمس التي تتخلف عند المغيب.

و مع كل إشراقة شمس يسب الجميع لِـ (يفرودار).. بمن فيهم الذين تقطعت بهم السبل البارحة، يحمل

الشرطي على كاهله معاقبة كل فرودار وتغريمه.. وإن تأخر ذات الشرطي عن العودة إلى بيته مع نهاية دوامه.. فلا خوف عليه سيحمله ويُقله من حمل على عاتقه معاقبته صباحا.

***

يعود علاء إلى البيت في منتصف الليل، يقترب منه بخطوات بطيئة وهو يفكر في العودة من حيث جاء بدل أن يقترب أكثر، كأنه يشعر بذنب ما يمنعه من الدخول إلى البيت، أو أنه لم يكن مستعدا لمواجهة أخيه مرة أخرى.. وبثياب مبللة وجسد يرتعش من شدة البرد.

اقترب من الباب فلم يسمع أي شيء رغم أن الباب تُرك مواربا، وربما هي تلك الإشارة التي أراد علاء أن يتلقاها ليدخل إلى البيت.. رغم كل المشاعر المكبوتة، مد يده لمقبض الباب فأصدر الباب صريرا سمعه من كان في الداخل.. فسارع إلى فتحه بالكامل.

وقف حينها والده أمامه ينظر إليه نظرة ممزوجة بالشفقة والغضب.. وعيناه ممتلئتان بعبرات الفرح والحسرة في آن واحد، ولسانه حائر بين الصمت والتأنيب، اكتفى بالقول:

- ادخل... عليك أن تجفّف شعرك وأن تغيّر ثيابك.

دخل علاء البيت مسرعا وسط ضحكات أختيه.. اللتين لم يُفقدهما الجنون إدراكهما ولا أي شيء من أحاسيسهما، لم يغمض لهما جفن وأخوهما خارجَ البيت.. وحين أغلق علاء باب غرفته جلستا مع والدهما.. الذي ترك باب البيت مفتوحا واتكأ على جدار في الرواق ينتظر مجيء حمزة.. فقد خرج ليبحث عن أخيه الأصغر.

سرعان ما غلب علاء النعاس ونام من شدة التعب.. ليرى تلك الجنية تعود إليه لتستخدم قدرتها على الإخافة.. ترافقها أم أيمن التي دخلت غرفته من النافذة دون استئذان.. وبثياب سوداء ملطخة بالدم وهي ترفع صوتها ضاحكة.

مدت يديها لتخنقه أو لتمزق عنقه بأظافرها الطويلة وهي تتوعده بالشر، وأن أناغيم لن تكون لغير ابنها أيمن، وأن حلم الظفر بأناغيم لن يتحقق.

لم يُنقضه منها إلا أخوه حمزة وهو يدفع الباب ليكلِّمه.. رغم أن والده ترجّاه أن لا يفعل ذلك فالوقت غير مناسب.. وحالة علاء لا تسمح له بالحديث مع أحد، ولكن حمزة كان مصرا على الدخول، كأنه كان يعلم أن علاء يتخبط في سريره وأن الجنية وأم أيمن تحاولان الخلاص منه.

سُر علاء لرؤية أخيه لحظتها فبدخوله فقط استطاع الفرار من ذلك الحلم المزعج، ويريد حمزة أن يتحدث مع علاء ليستعيد حلما جميلا فقده.. ولا يستطيع أن ينتظر قدوم الصباح فالأحلام لا تقبل التأخير، ابتسم لعلاء وهو يدنو منه ببطء حتى جلس بجانبه.

كان كلامه هادئا وصوته على غير العادة منخفضا.. كأنه كان يهمس في أذني علاء سرا ما، كانت الكلمات تخرج من فمه بطيئة.. فلم يكن يهمه كم من الوقت سيقضي مع علاء، المهم أن يفهم كلامه ويتجاوب معه.

يتكلم حمزة ويصمت.. وبين الكلمات يأخذ أنفاسا أطول.. ليجعل علاء ينتظر ماذا سيكون بعد ذلك الصمت وبعد تلك الأنفاس.. ثم يقول كلمات تفصلها عن الأخرى همهمات مقصودة وفراغات تملؤها المشاعر التي تتلاحم بالكلمات.

كلّمه عن المستقبل الخالي من كل الآلام ولم يكلمه عن الماضي المؤلم، وأنه لن يعيش مستقبله سعيدا إلا على مسرح النسيان، لم يحدِّثه عن الأوهام التي تتغذى من العزلة بل عن "الأحلام التي تشبه الطيف الجميل الذي لن يصله أي أحد بأرجاس الأحقاد" التي يغذّيها الصمت.

- بل تصله يا علاء بالصفح الجميل وبكلمات (الحب) الطاهرة التي تختبئ داخلك.. والتي لا تستطيع قولها إلا حين تنفرد بنفسك في واد الرمال.

حتى حمزة وهو يقول تلك الكلمات لم يستطع ذكر كلمة الحب، بل قال بالكلمات (...) الطاهرة فقط.. وهو يحاول الدخول إلى قلب علاء وعالمه الخاص بجسر من الكلمات.. كلمات قالها وأخرى لم يجرأ على قولها.

حدّثه عن الخوف وأنه لا وجود له ولا مكان له يحيا فيه وهو يقول:

- نحن وحدنا من فرشنا له قلوبنا ليعشعش فيها ويُفرخ.. فعلينا أن ننظف قلوبها ونعيد ترتيب مشاعرنا لنتخلص منه.

و لم يكن كل ذلك الكلام إلا تمهيدا من حمزة ليعرض على أخيه شيئا ما أنهاه بقوله:

- علاء فكِّر في الأمر وأنتظر ردك قريبا.

تلك آخر الكلمات التي قالها حمزة قبل أن يغادر وقبل أن تبدأ الأحلام الجميل في مراودة علاء، بل كان حلما واحدا فقط هو الانضمام إلى الجيش والبوح بالحب لأناغيم، بدا له أنه لن يستطيع أن يبوح لها بمشاعره إلا حين ينضم إلى الجيش.

تلك البدلة العسكرية يمكن أن تغرس فيه شيئا من الثقة بالنفس، وقد تجعله قادرا على مواجهة خوفه ما دام سيكتسب بعضا من القدرة على إخافة الآخرين حين يرتديها.

و نام حمزة على حلم جميل أيضا.. فقد عرض على أخيه علاء الانضمام إلى الجيش بعد أن يغادره هو تاركا له همَّ إعالة أختيهما ووالدهما.. فهو لن يستطيع أن يبوح بالحب إلا حين يتنازل عن تلك البدلة.

هو ليس في حاجة إليها ليعلن الحب.. بل كانت عائقه الوحيد أمام حبه الكبير، هو في حاجة إلى عمل آخر يمكن أن يجعل حلمه يستمر.

نام الأخوين على حلم واحد وعلى الرغبة الملحة ذاتها.. وعلى أكثر من طريقة لتحقيق الحلم.

المشهد السابع: هزائم الحب

اقتباس من النص

((كتب لها يوما "الحب كالحرب، قد تشتعل بخطأ ولكن لا أحد يعلم كيف تنتهه" وكان متلهفا ليأتي الغد ويرى كيف كان ردها.. هي لم تكن تكتب له إلا حين يستفزها وتشعر أنه يجب عليها أن ترد بشيء ما، عاد صباح اليوم الموالي وتفقّد اللوح فوجده مكتوب عليه.. "في الحرب كما في الحب لكي ينتهي الأمر لابد من مقابلة مباشرة".. دون أن ينتبه أي منهما إلى أن الحب كما الحرب.. أفضل ما فيهما حماسة الرصاصة الأولى.. ولحظة إعلان وقف إطلاق النار)).

استيقظ علاء باكرا وهو يدندن دون أن يحرّك شفتيه، كأن فؤاده كان يرقص على مقطوعة مالوف منفردا.. دون أن تشاركه الحواس ذلك الرقص.. فجسده كان منهكا.. هو لم ينم جيدا من فرط الأحلام.

صباح ذلك اليوم تخاصمت داخله الحواس كلها.. منها من يريد أن يواصل النوم ليرتاح من الأحلام بأحلام أجمل منها، وحواس أخرى تريد أن تبادر لتصل إلى أقرب حلم، والقلب لا زال يدندن لم يفصل بعد في الخصام.

"و انـا بالبـغية تقوى غـرامي
أهلكـني يا سابـغ الشـفر
غيبت على اقداهم وجزت للزينة زارب
قلتلها جيتك بغيظ نـاري مقدية
تقوليلي مـا يـوالـم ويناسـب
الله يـا سـود الريـامـي"

فالفؤاد رجل المالوف الأول الذي ترك البحر.. ترك التجارة.. وترك التجوال واستعار حبيبة بدل الوطن يسكنها.. صوتها وقرع نعليها نشيد للدولة.. السواد لون علمٍ وعينيها عاصمة أبدية.

زهد الحياة حين رآها للوهلة الأولى، ومع الهجران الأول ضمّ إليه آلة للمالوف وللحب بدلا عنها.. وقام ينتقل بين مقاماته ليصل إليها، وترك الخمر حين أدمن حبها.. ما عاد غيرها يُذهب عقله.. ويده كما شفتيه بَعْدُ ما وصلت إليها.

لم يتوقف الفؤاد عن تلك الدندنة إلا حين عجز رجل المالوف عن القول.. (جيتك بغيظ ناري مقدية) وسمع كلاما غير الذي تمنى سماعه.. وأناغيم لم تقل (ما يوالم ويناسب).

جميع الطلاب كانوا يقدمون لها التهاني على شيء ما.. وفي وجهها الكثير من أمارات الحزن.. أو أنها لم تكن مهتمة لمواصلة الاستماع إليهم.

كانت تريد أن تَفْرغ منهم وهي ترى علاء ينظر إليها من مكان ليس بالبعيد.. إلا أنه لم يجرأ على الاقتراب منها ليسألها عن ما يسمعه، ظل ساكنا دون حراك مذهولا.. تذكر أم أيمن وتمتماتها وزواجا يمكن أن يكون في الوطن العربي عنوة.

تركت أناغيم الجميع وأقبلت نحوه.. فقد رأت أن وجهه تغير، لا يمكن أن تجعله ينتظر أكثر وفي عينيه أكثر من سؤال ملح.

سارعت إلى رسم ابتسامة عريضة على شفتيها قبل أن تصل إليه لتطمئنه.. وحدثته عن خطبة أختها قبل أن تبادر بالتحية، ليرد حينها مبتسما ابتسامة من استعاد حلما جميلا بعد أن شعر أنه ضاع منه.. أو أنه قد يضيع.. وسألها متعجبا:

- لما وجه الحزن هذا إذن يا أناغيم؟

فأجابته قائلة:

- هذه ليست المرة الأولى التي يتقدم لخطبتها أو يعدها بالزواج...

يتلعثم لسانها بعدها وتسكت برهة.. و في وجهها الكثير من أمارات التردد.. لتحرّك شفتيها بعد ذلك بشيء ما، كأنها كانت تفكر بصوت مسموع وهي تنطق كلمة أو كلمتين من إحدى جمل الماضي المقتضبة:

- إنه رجل أمن.

- وما المشكلة في كونه رجل أمن يا أناغيم؟

فأجابته مكرهة وقد انتبهت إلى أنها تسرعت في كلامها:

- القانون لا يسمح له بالزواج من أختي وهو يعلم ذلك جيدا.. وهي تنتظر منذ سنوات طويلة لا تريد أن تتزوج غيره، بل كلاهما ينتظر الآخر منذ سنوات،

وكل مرة يعدها أنه سيتنازل عن وظيفته لأجلها.. لكنه لم يفعل ذلك، هناك شيء ما يخفيه عنها ويمنعه من خلع بدلته العسكرية.

ازداد تعجب علاء وهو يسمع كلامها.. فازداد إصرارا على معرفة المزيد عنها، ولما لا يمكن لرجل أمن أن يتزوج أختها؟

حاولت أناغيم أن تفلت من ذلك الموقف كي لا تجيبه.. وهي تتحجج بأن الوقت غير مناسب، سارت خطوات باتجاه حجرة الدراسة وهي تودعه مبتسمة.

أمسك حينها علاء يدها دون شعور منه.. لم يدرك لحظتها ما الذي يفعله.. ولا يدري كيف سحبها إليه، لم يفلتها إلا حين أحس بوخز حرارة يدها.. رغم نعومتها، أو ربما هي التي سحبت يدها وهي تلتفت إليه.

نظرت إلى عينيه نظرة عميقة حاولت من خلالها أن تتسلل إلى أعماقه.. لتعرف سر جرأته حين أمسك يدها، هو بذلك يرغمها على الحديث إليه عن كل الذي تُخفيه.

تساءلت كيف له أن يرغمها على ذلك؟ هل مشاعره الخفية اتجاهها تمنحه حق الاطلاع على ما خفي من ماضيها؟ وهل بينهما حقا سرا ما؟ أو أنه ما عاد الذي بينهما سرا وقد أمسك أمام الجميع يدها.

فكرت مليّا قبل أن تبدأ بالكلام.. وقد أدركت أنه لا يمكنها أن تقاسمه المستقبل دون أن يعرف كل شيء عن ماضيها، ولا يمكنها أن تتستر على ذلك الماضي إلى الأبد.

خفضت رأسها قليلا كطائر مكسور الخاطر يضم إليه جناحيه.. واستسلمت له ولنظراته الملحة التي لم تفارق عينيها، أخذت تلفظ كلمات متقطعة.. تلتقط بين الحين والآخر أنفاسها.. فشيء ما يخجلها ويجعل لسانها يتلعثم.

حدّثته مرتبكة عن والدها الذي كان مهندسا معماريا.. ومؤذنا متطوعا لإحدى المساجد القريبة من البيت، وفي إحدى ليالي 1991م انتزع منه بعض المنحرفين من الجيران مفاتيح المسجد.. وقام أحدهم يؤذّن للجهاد في منتصف الليل.

اقتاد بعد ذلك رجال الأمن والدها للاستجواب.. ثم أطلقوا سراحه دون أن يصيبوه بأي أذى، فهو لم يكن الفاعل وذكر للأمن أسماء أولئك المنحرفين.

لم يعد والدها مطمئنا على نفسه بعد ذلك وقد بدأ القتل من دون سبب يشيع في البلد، وكان خائفا من انتقام جيرانه الذين التحقوا بالجبال وقد وشى بهم.. فقرر أن يلحق بهم ليأمن شرهم.. وأصبح منهم رغما

عنه، لم يكن لديه الكثير من الوقت ليجد حلا آخر يحمي به أولاده.

كان يعتقد أنه سرعان ما تنطفئ تلك الفتنة ويعود إلى البيت سالما ويعود الأمن للجميع.. إلا أن نار الحرب استعرت أكثر ولعشر سنوات طويلة.

قالت أناغيم بنبرة حزن واضحة:

- تغيرت بعد ذلك حياة أختي أنفال.. فقد تزامن انضمام أبي لـ(هؤلاء...) مع تعرفها على ذلك الشاب الذي جاء إلى قسنطينة لتأدية الخدمة الوطنية.. ثم واصل عمله في الجيش وعرض عليها الزواج لاحقا.. وتغيرت حياتنا جميعا بفقدان الأب والكفيل فتكفلت بنا أم أيمن.

أخذت أناغيم نفسا عميقا لتخرج آهات الحزن التي تسكنها مع خروج أنفاسها.. ولتواصل بعدها حديثها قائلة:

- حتى ذلك الشاب تغيرت حياته كثيرا لعدم قتله لوالدي.. فهو لم يفعل ما طُلب منه عربونا على محبته لأختي، رغم أنه كان يريد أن يقتله أيضا في الوقت ذاته عربونا على حبه للوطن، لم يستطع ذلك الشاب أن يهرب مع أختي.. ولا استطاع أن يستقيل من عمله ليفر

من هذا الصراع المجنون، فالوطن كان يومها في كفة بالنسبة إليه.. وأنفال في كفة أخرى.

توقفت أناغيم عن الكلام وقد شعرت أنها قالت أكثر مما يجب عليها أن تقول.. ورفعت رأسها لتنظر إلى وجه علاء، أذهلها سكوته.. هو لم يقل شيئا.. وهي تريد أن تعرف رأيه بإلحاح وأن ترى ردة فعله لترتاح.

تمنت أن يقول لها لحظتها أنت لست مذنبة يا أناغيم.. أو على الأقل والدك وحده هو المذنب.. فلا تخجلي من شيء لم تفعليه، ولكن علاء لم يقل شيئا.. ظل ساكتا وفي سكوته ذلك أكثر من كلمة ازدراء، وفي نظراته لها لحظتها شيء من الاحتقار.

هي لم تكن تعلم أن علاء من ضحايا الإرهاب، وأن حياته تشوّهت بفقدانه للأم.. وأن والده عاش مشلولا.. وأختيه أصابهما الجنون.

لم يستطع علاء لحظتها أن يفهم أن حياة أناغيم أيضا تشوّهت، فوالدها من أولئك الذين لا يعرف أحد قبورهم.. حتى بعد انتهاء الفتنة.

هو ليس من الأموات ولا من الأحياء.. لا يعرف أحد عنه شيئا، ولا يعرف أولاده كيف يحيون بسلام.. ففراقه ليس مؤلما وحسب.. بل فضيحة أيضا.

علاء لم يكن يفكِّر إلا في نفسه لحظتها، وأناغيم لا تعلم أنه يُلقي باللوم على كل الذين التحقوا بالجبال على فجيعته، لا يهمه إن كان هؤلاء مغرر بهم.. أم ممن تلطخت أيديهم بدماء الأبرياء.

هو تمنى الموت لمن علَّمه القرآن.. لمجرد الاشتباه في كونه هو من قتل أمه، فكيف يقبل أن يكون والد حبيبته إرهابي؟

لم يتمالك نفسه.. ولم يكن أرأف بها من القانون فعيّرها بوالدها، دون أن يستعير كلمة أخرى تكون أقل وطأة عليها.. فهي لم تقل أن والدها إرهابي ولا تعترف بذلك، والوطن تصالح مع ذاته وانتهى الأمر.

دخلت بعدها أناغيم قاعة الدراسة تجهش بالبكاء.. وقد تصلح عَبَراتها كترياق لجرح قديم لم يلتئم بعد.

سارعت دموعها في النزول.. وتباطأت هي في مشيتها متمنية أن يمسك علاء يدها للمرة الثانية قبل أن تبتعد عنه.. لن تمانع إن فعل ذلك وإن ظل يمسكها إلى الأبد، ولكنه لم يفعل ذلك.. فقد شعر برغبة ملحة في الابتعاد عنها، واتجه صوب السلالم ينزلها مسرعا لا يدري أين يذهب.

لم تُبعده سرعة مَشْيِه تلك عن الأحزان ففكر في الركض.. وعبثا كان يفكِّر في ذلك وعبثا بدأ يركض،

لن تفر من أحزانك ولا من ماضيك ولا من الخوف الذي يسكنك إلا بالمواجهة.

وربما كان موقنا بذلك هو فقط يريد أن يُتعب جسده قليلا لكي لا تتحمل الروح التعب لوحدها، لا بد للجسد أن يقاسمها التعب كي لا تجن.

تساءل وهو لا يزال يركض.. هل هذا هو السبب الذي جعل أخي حمزة لا يتزوج؟ وهل هذا هو السبب ذاته الذي يريدني لأجله أن أكون كفيل الأسرة.. بعد انسحابه من الجيش؟ وهل حبيبته بنت إرهابي أيضا؟

يكلِّم نفسه بصوت مسموع غير آبه بكل الذين ينظرون إليه:

- نعم يمكنك يا حمزة أن تعيش حلمك بعد اليوم، سأنظم إلى الجيش وأتكفل بأختيْنا ووالدنا.. وأنت عش حلمك كاملا لا تنتظر أكثر.

ثم يعتذر لأخيه قائلا:

- لا سامحني يا حمزة لن أفعل ذلك لا أريد أن أعيش كابوسك.. لا أريد أن أفرّط في حلم العيش مع أناغيم.. لا يمكنني أن أعيش المأساة ذاتها.. وأن أكمل ما تبقى من سنين الألم.

ثم يوافق على طلبه مرة أخرى بقوله:

- سأفعل الذي طلبت مني يا حمزة.. لأجل سنين عمرك التي ضاعت، سأضحي كما ضحيت لأجلنا ولأجل ذكرى والدتنا.. بل لن تكون تضحية فأناغيم لا تستحق حبي، أليست ابنة إرهابي، أليس والدها واحدا من أولئك الذين تسببوا في فجيعتي الكبرى.

يتراجع بعدها فيقول:

- لن أفعل ذلك يا حمزة.. أليست التي تريد الزواج منها بنت إرهابي كذلك.. إذن لا تستحق هذه المرأة أيضا حبك ولا تستحق تضحيتك ثم تضحيتي، لن أفعل وإن كانت حبيبتك هي أنفال أخت أناغيم بالذات، فليتعذب الجميع لعذابنا.

أجابه حمزة وهو يحاول أن يهدئ من روعه.. فقد دخل علاء إلى البيت باكيا يقول سأفعل.. لا لن أفعل.. فقال له وقد سمع آخر كلامه:

- عليك أن تفهم يا علاء أن "الحرب مجزرة تدور بين أناس لا يعرفون بعضهم البعض.. لحساب آخرين يعرفون بعضهم البعض.. ولا يقتلون بعضهم البعض" لذلك في الحرب يموت الأبرياء والضعفاء فقط ولا يمكن أن نعيش هذه الحياة إلا مع النسيان.. لا بد من (الحب) لنُشفى من الحقد.

نظر علاء لأخيه حمزة باستغراب.. فقد جَفَّفَت دموعَه تلك الكلمة التي لا تقال في البيوت المحافظة.. ورد عليه بمثلها، وكأن الكلمة صارت مستباحة فجأة.. أو أن علاء يريد أن يجرِّب كيف تنطق أحرفها جهرا.. فسأله قائلا:

- هل حب امرأة يساوي دم أم.

فأجابه حمزة قائلا:

- قد يتساوى ذلك إذا كانت الأم المرأة والمرأة الحبيبة ضحيتان لنفس الحرب، وقد يساوي الحب الموت تعويضا.. فالموت مصيبة والحب رزق، وقد يكون ذلك الرزق كفيلا بتخفيف وطأة تلك المصيبة.

كان في كلام حمزة شيء من الواقعية المرّة.. وشيء من الألم المقنع أيضا.. وهو يحدثه عن الحرب التي "قد لا تكون مهتما بها ولكنها قد تكون مهتمة بك" وقد تدفعك لخوضها مرغما.. أو قد تحمّلك نتائجها أيضا.

قال له:

- أنا لم أكن أتصور أني سأخوض مثل هذه الحرب حين تم استدعائي للخدمة الوطنية، لم أكن أتصور أنها يمكن أن تطول كل هذا الوقت، وأن تكون بمثل تلك البشاعة، إنها أشبه بالوقوع في الرمال المتحركة فجأة

ودون سابق إنذار، وأنت مخيَّر بين أن تبقى دون حراك لتموت ببطء.. أو أن تحاول الخلاص منها فتسرع حينها في ابتلاعك، والنهاية لن تكون من تقديرك.

تذكر حينها علاء كلام أناغيم.. وأن والدها أيضا كان يعتقد أن هذه الحرب لن تطول، وقد يكون أُرغم حقا على حمل السلاح والانضمام للإرهابيين.

تسلل إلى قلبه مع كلمات أخيه لحظتها شيء من الندم على كلمة قالها لأناغيم، ولا يدري كيف سيقابلها بعد اليوم.. ولا كيف سيعتذر إليها، وجرحه كما جرحها خفي لم يُعرض للفرجة ولم يلتئم بعد.

***

اكتفى بعد أيام عديدة بكتابة رسائل قصيرة لها على ألواح حجرة الدراسة لا يعرف أحد من المرسل.. ومن المرسل إليه، رسائل كتلك الكتابات التي وجدها من قبل منقوشة على طاولات تلك الحجرة.

كلمات كالألغاز، كتب لها عن الحب وعن الحرب.. وأن الكلمتين لا يتشابهان في الأحرف فقط.. فقد يشتركان في حمل معاني الألم أيضا.

كان يسبق الجميع إلى حجرة الدراسة ليكتب لها شيئا ما خفية كل يوم.. كأنه بذلك يريد أن يعتذر إليها

أو يريدها أن تعتذر له عن شيء لم تفعله، يريدها قريبة منه ويرغم نفسه على الابتعاد عنها.. وهو متأكد أنه لا يمكنه أن يعيش دونها.

وصارت تلك الألواح مع مرور الأيام تأخذ قدسيتها مما يُكتب عليها، يَكتب لها صباحا خفية.. وترد عليه بشيء ما تكتبه على تلك الألواح في نهاية كل يوم دراسي خفية أيضا.

كتب لها يوما "الحب كالحرب، قد تشتعل بخطأ ولكن لا أحد يعلم كيف تنتهي" وكان متلهفا ليأتي الغد ويرى كيف كان ردها.. فهي لم تكن تكتب إلا حين يستفزها.. وتشعر أنه يجب عليها أن ترد بشيء ما.

عاد صباحا وتفقّد اللوح فوجده مكتوب عليه "في الحرب كما في الحب لكي ينتهي الأمر لا بد من مقابلة مباشرة".

تساءل حين قرأ الذي كُتب على اللوح.. هل هذا يعني تصريحها بالحب؟ أم دعوة منها لضرورة التصريح به؟ وهل هي التي كتبت حقا هذه العبارة وكل العبارات السابقة؟ أم أن أحدا آخر كان يكتب بدلا عنها؟

حين جاءت صباح ذلك اليوم.. لم يكن في ملامح وجهها أي أمارة أو ارتباك يفضحها ويبيّن أنها هي

التي كتبت آخر رسالة، ولم تكن له الجرأة ليسألها.. ولا يواجهها بالحب كما قالت.

بدأت تلك الكتابات تقل شيئا فشيئا مع مرور الأسابيع.. حتى توقف عن الكتابة لها، بدأ يشعر أنه في حاجة إلى أكثر من مجرد رسائل مكتوبة.

ربما الكتابة لم تعد تشبع حاجته للحب.. وحاجته للتعبير عنه، هو يرديها قريبة منه أكثر من ذلك القلم الذي يحمله، لكنه مستاء من ماضيها ويريدها أن تبادر بالقرب، وهي تشاطره الرغبة ذاتها ولكنها فقدت حماسة الرد.

و كانت أناغيم تنتظر منه إشارة ما.. فهي لا تزال تشعر بأثر تلك الكلمات الجارحة التي قالها لها، تحتاج مبادرة منه تكون كترياق لتشفى من سم تلك الكلمات، لا يمكنها أن تبادر رغم حبها له لكي لا تكون كلماته وصفا لصيقا بها.

اكتفت بكتابة شيء على الألواح كمبادرة منها، وهي المرة الأولى التي تكتب له دون أن تكون كتابتها رد على كتابة سابقة له، فقد طال أمد ذلك الفراق لأشهر طويلة، كل واحد منهما يُرغم نفسه على تجاهل الآخر، وكل يوم يعاندان الحب تحت سقف حجرة واحدة.

كتبت له لأنها لا تريد أن تخسره إلى الأبد، تلك الأشهر التي ابتعد فيها عنها ذكّرتها بالأشهر الأولى التي كانت تنتظر فيها والدها أمام الباب كل ليلة بعد انضمامه للإرهابيين.

لكنه لم يكن يأتي، يئست بعدها ولم تعد ترتعش حبا.. ولا تقفز من سريريها حين يدق أحدهم الباب ليلا.

هي لا تريد أن تعيد التجربة.. ولا أن تتجرع المرارة ذاتها بفقدانها لعلاء، وهي ترى أن فيه شيئا من عطر والدها، طيبته، غموضه وصمته أيضا وعقلية مشتركة، لا يمكن لامرأة أن تعيش أبدا إن خسرت رجلين.

كتبت له وترجّته دون أن تُظهر انكسارها، عبّرت عن حبها الدفين له دون أن تجهر بذلك، أقسمت عليه أن لا يتركها دون أن تحلف، وسامحته دون أن تقول ذلك أيضا.

خِفية كتبت والدموع تسيل على وجنتيها.. دون أن تترك أثر لتلك الدموع على الألواح ولا بين أحرف الكلمات، تحبه وتكابر في حبها له مرغمة على ذلك.

كانت تحاول أن تقول كل شيء في رسالة واحدة ومختصرة.. ولكن دون أن تقول بصراحة تامة أي

شيء، هي فقط رسالة من رموز لا يعلم أحد مصدرها ولا وجهتها، أنهتها برسم خمسة سينات مبعثرة بشكل دائري.

كتبتها خلسة وانصرفت على عجل.. كأنها تريد أن تختبر برسالتها حبه لها أو تتفقده، تركت قنبلة حب من كلمات لتفجر فيه كل المشاعر وكل ينابيع الأحاسيس، وإلا فلتُتْرك حروف رسالتها للذكرى.

وكأن للحب بعد سنوات الحرب طقوس وتراتيل خفية.. فلكل واحد خطة ما في الحب، كأنه لا يزال يصارع لأجل البقاء.. والجميع يعيش الحب على أرض الحرب.. والألم واحد.

جاءت باكرا في اليوم الموالي، ارتدت أجمل ما لديها.. معطفها الأحمر، ساعة يدها الحمراء، وحقيبة اليد أيضا وتركت أحمر الشفاه ليوم آخر.

و لكنها لم تترك ذلك الحذاء ذو الكعب العالي.. والذي ارتدته يوم شاهدا المسرحية سويا، وكانت مستعدة لتترك حذاءها يقع منها على السلالم عمدا حين تلتقي علاء، لعلى علاء يلتقطه وهو على مقاسها.

و دون أن تنتظر عيد الحب.. ارتدت كل تلك الحمرة تريد أن تجعل لحبهما الخفي أيام السنة كلها..

وهي تخبّئ بإحكام قطع صغيرة للشوكولاتة.. فقد كانت تُؤمّل نفسها بشيء ما.

ابتسمت له حين التقيا ولكنه لم يبادلها الابتسامة ذاتها، حيّته ولكنه لم يرد على تحيتها، تركها تبتلع ريقها على مهل وانصرف كأنه لم يرها، أحست لحظتها أنها لم تخسره فقط.. بل خسرت ذاتها أيضا.

شعرت أنها لم تقابل حبيبها بل ثورا.. وأنها خسرت في مصارعته، فهي لم تُرد منه أن يتجنبها بل أن يدهسها ليزيلها من الوجود.. أو يضمها ليعيدها لهذا الوجود، لكنه لم يفعل ذلك.

خسرت في مصارعة الحب التي تختلف قوانينها عن قوانين مصارعة الثيران، الرابح فيها ليس الذي يجيد البعد عن الثور في اللحظة الأخيرة.. ولكن الذي يتقن فنون القرب منه كل لحظة.

كانت تريد أن تسأل نفسها بصوت مرتفع وهي تنظر إلى جسدها.. هل في هذه الحمرة المكدّسة على كل هذا البياض المطلق شيء ما؟ أليس هذا لونه المفضل؟ أم أن سواد خمارها يومها.. وشيء ما في سروالها لم يناسب تلك الطلة؟

ألم يقرأ الرسالة بعد؟ أم أنه قرأها بالمقلوب؟ وفهم غير الذي أرادت، هي لم تَجد رده على الألواح

وحسبت أنه افتقد الكلمات من زخم رغبة في لقائها.. وأنه ترك كل تلك المشاعر الفيّاضة للحظة اللقاء، ولكن لم يكن شيء من ذلك كله.

و لم تكن تعلم أن شيئا ما في رسالتها ذكّره بحديث سابق لها.. جعله يقرر أن الأمر انتهى، وأن الحب كما الحرب أفضل ما فيهما حماسة الرصاصة الأولى.. ولحظة إعلان وقف إطلاق النار، لا حب.. لا حرب ولا سلام بعد ذلك أيضا.

تمنت أن تكون رسالتها تلك وكلامها جسرا يعيده إليها، ولكن كلماتها المكتوبة كان القشة التي قسمت ظهر البعير.. وجعلته يسقط عند ذلك الجسر.. وأن لا يعبره أبدا.

علاء أيضا قرأ تلك الرسالة بلهفة وشوق كبيرين، التهم حروفها على عجل وهو يمرغ أصابعه على ذلك اللوح.. دون أن يمسح أثر الطبشور عنه.

كأنه يريد أن يتحسس نعومة الأصابع التي كتبت قبل أن يقرأ الكلمات.. أو كأنه في إحدى المزارات يتمسح بقبر ولي صالح، ولكنه صُدم بالذي قرأه بين الأحرف كما صدمت هي حين تجاهلها، وسحب علاء يديه وقد أحس بنجاسة تلك الألواح.

لم يسحب يده وحسب.. بل روحه أيضا شعر أنها تنسحب من جسده.. وهو يقرّر أن الأمر انتهى، وأن الحب ولد مشوها بما يكفي ولا يعيد له نضارته مرهم.. ومتطرفا لحد لم تعد تنفع معه العصا لجعله مستقيما.

شعر علاء لحظة اتخاذ قرار الفراق بحسرة كبيرة وبراحة أكبر، فأناغيم قتلت ذاتها داخله حين قرأ الذي كتبت، بقي فقط أن يتخلص من بقاياها في قلبه.. لا يريدها أن تدفن فيه.. بل بعيدة عنه بما يكفي لكي لا يذكرها.. ولكي لا يحن لأيامها أبدا.

كل ذلك لأنه تذكر حديثا قديما لها عن مجاهد مغمور تعذّب مرتين.. مرة في مواجهة فرنسا.. وأخرى في مواجهة الفقر والتهميش.. في فترة ما بعد فرنسا.

لم تُرد يومها أن تذكر اسم ذلك المجاهد.. لم يكن عربيا ولا بربريا ولا أمازيغيا، قالت:

- إنه يلقّب خارج البيت بـ حسين.. واسمه الحقيقي أقرب إلى الحزن.. لا يعرف اسمه إلا أهل بيته وأقرب جيرانه إليه.

لم يُثر ذلك انتباه أحد فقد كان الجميع يعتقد أن له اسما ثوري وآخر حقيقي.. ككل المجاهدين

الجزائريين، والحقيقة أن له اسمين أحدهما عربي و... وكان الجميع حزينا لأجله فالجزائر لم تنصفه.

قالت:

- إنه احتفل مع كل الجزائريين بالاستقلال.. ثم أخفى سلاحه وأخفى دينه وعقيدته كذلك، ويوم خرجت فرنسا لم يخرج معها.. فهو لم يحمل يوما جنسيتها ولم يكن له مال يكفيه ليغادر بلد ولد فيه ودافع عنه.. ثم اختبأ فيه.

تساءل الطلبة يومها.. لماذا يخرج هذا المجاهد من الوطن وهو من أبنائه؟ وهل هو الآن بيننا؟

قالت:

- إنه لم يخرج.. ولكنه لم يعد يلبس معطفه الأسود الذي كان يحب أن يلبسه حتى في أيام الصيف الحارة.. ولا قبعته السوداء الكبيرة إلا لمرات قليلا، دون أن يلبسهما معا حتى داخل بيته.

يخشى أن يراه أحدهم وهو يُطل من إحدى شرفات البيت بذلك الزي فيقع المحذور، وهو لا يردد تراتيل حبه للجزائر إلا منفرد داخل بيته.. وبصوت خافت.

حينها فقط فهم الطلبة أن أناغيم تتحدث عن مجاهد يهودي.. وفي اللحظة ذاتها تغيرت أحاسيسهم.. لم يعد

أي واحد منهم يشعر بالحزن لأجله.. ولا الجزائر مجحفة في حقه أيضا.

يمكن أن يكون المجاهد مذنبا.. فالمجاهدون بشرٌ يخطئون ويصيبون، وربما بعضهم اختلف مع بعض بعد الاستقلال حول السلطة إلى درجة الصراع.

من يقرأ مذكراتهم يعتقد أن الحرب دارت بينهم وليست في مواجهة فرنسا، ولكن لا يمكن أن يكون من بينهم يهودي، اليهودي في لغة الأمازيغ لا يعني غير الشيطان أو العفريت.. والمجاهدون أشبه بالملائكة.

لم يهتم علاء لكلامها يومها فهو مجرد رأي، وهي تتحدث عن شخص غريب.. لكن في كتابتها الأخيرة شيء ما يدل على أن لها علاقة به.. قد يكون جدها، وجدة علاء كانت تقول "كُول مع لِيهودي وما تَرْقُدْشْ مْعَاه" فهو غير مؤتمن.

حين قرأ الذي كتبت على الألواح.. لم يواجهها ولم يسألها.. ودون أن يتأكد من الأمر تركها وهو يعلم أنها مسلمة، تركها لأن أصولها يمكن أن تجعل في نسله شيئا من مس الشياطين.. أو شيئا من دم العفاريت.

هكذا كان يعتقد.. أو هذا ما علّمته إياه جدته.. كما علّمته سنوات الحرب المخيفة كيف يفر عند المواجهة، وجعلته أحداثها يحفظ كل مبادئ الأمان ويلتزم بها.

ترسخت في ذهنه جيدا فكرة الابتعاد عن كل الطرق التي يرى فيها حقيبة ما.. أو أي شيء آخر مُبهم.

لازال يذكر تلك التحذيرات التي كانت تبثها القناة الوطنية.. بل ترددها كل ساعة.. لتعلِّم شعبا أن لا يخاف، أو كيف يزداد خوفا حين يتعامل مع الأكياس المشبوهة التي يمكن أن تكون مفخخة.

هو لا يريد أن يبني مستقبله مع امرأة أحبها وخياله يرسم له تلك الأكياس مقرونة بأصولها، وفي ماضيها نفس تلك الحقائب التي لا يتوقع أحد ما يوجد بداخلها.

لا يمكن أن يعيش معها وبداخله أكثر من عقدة نفسية.. وأكبر من مجرد الخوف، وفي ماضيها أكثر من حقيبة مفخخة.

يجب عليه أن يبتعد عن كل شيء مغلق أو مبهم أو غير واضح من النظرة الأولى، يجب عليه أن يبتعد عن كل شيء قالت أمه أن عليه أن يبتعد عنه.. أو قالت جدته ذلك.. أو يوجد شيء في المِخْيال الشعبي يحث على ذلك.

دون أن يسأل لما؟ ولا كيف؟ فقد لا يكون له وقت للهرب إن انفجرت تلك القنبلة وهو يحاول أن يعرف

ما يوجد بداخلها.. هكذا قال الوطن وهو يعرف كل شيء.

أترك ذلك كله، وانج بنفسك، ولا تخبر أحدا أنك رأيت تلك الأكياس.. فقد يَحُثك على الرجوع إليها لتعرف ما بداخلها.. وحينها قد تُنسب لك تلك الأكياس بكل ما تحمله من معاني الإرهاب والخيانة.. وإن لم يقل ذلك الوطن.

بعد أكثر من عشرة سنوات من انطفاء تلك الفتنة.. لازال علاء يرى في كل الأشياء المبهمة شيئا من تلك الأكياس، ويشعر أمامها بنفس الخوف.. وبذات الرغبة في الهرب والابتعاد.

مرّت الأسابيع والأشهر دون أن يكلِّم أناغيم أو يعتذر إليها، لم يكن ينظر إليها.. بل لم يفكر فيها ولم يحنَّ بعد لقربها، ومع ذلك كله كان يحلو له سماع صوتها.. ينعشه إن هي مرت أمَامَه عطرُها.. دون قصد منه تتنصت أذناه على أخبارها وعيناه خلسة تسترقان النظر إليها.

شعر أكثر من مرة أنه تخلص منها وانتهى، أو ربما كان يقنع نفسه بذلك فقط، أو أنه لم يجرِّب بعد معنى الفراق حقا.. هي لا تزال قريبة منه ويلتقيان كل يوم تحت سقف حجرة واحدة.

هي بعيدة عنه على قدر قربها منه، وربما ذلك القرب هو الذي كان يقتات منه قلبه دون علم منه، وقد يكون أدرك ذلك المعني في اليوم الأخير لامتحانات نهاية السنة الدراسية.

في ذلك اليوم كان علاء يعرف جيدا أنه اليوم الأخير الذي ستفتح بعده الجامعة أبوابها للناجحين، وأن أناغيم لن تكون بعد ذلك اليوم قريبة منه إلى هذا الحد، وهو لا يملك الجرأة لتدبير لقاء معها في مكان آخر غير هذه الحجرة.

حمل ذلك اليوم في طياتك الكثير من الأحاسيس المتناقضة، فلم يكن علاء يشعر بالحزن يومها.. ولكنه لم يكن سعيدا أيضا، فقد أدرك أنه لم يشفى منها كما كان يعتقد، أو أنه لم يعد يعرف ما طبيعة شعوره اتجاهها.

في آخر لحظات ذلك اليوم لم يستطع علاء أن يتمالك نفسه أمام رغبته الملحة في النظر إليها.. نظرة صريحة للمرة الأخيرة.. وبارتباك النظرة الأولى، ما عادت المقاومة مجدية لا بد من الاستسلام أمامها مرة أخرى، وقد يكون التطبيع صدقة جارية في معارك الحب.

يريد أن ينظر إليها نظرة تشبه النظرة الأولى بكل ما حملته في طياتها من تناقضات الهيبة والحنين، نظرة بعمر آلاف النظرات، نظرة تكون زاد يكفي لأيام الفراق الطويلة.

لعنة جمالها تطارد بصره.. ونغمات صوتها تدخل أذنيه لتلامس قلبه دون أن تقرع أي أبواب.. ولا أن تستأذن.. بجبروت مطلق، كما يفعل الإرهابيون تماما، اللصوص والملوك أيضا.

حركاتها نغم واسمها.. ومع ابتسامتها تتفتح أزهار الربيع، فكانت تعصف به بهدوء وهو ينظر إليها نظرة أخيرة.. وهي تبادله النظرة ذاتها.. دون أن يملأ أحدهما من الآخر عينه.

عاتبته بنظرتها تلك.. ودّعته دون أن تقول له ذلك.. سامحته رغم ظلمه لها ورغم أنه لم يطلب منها الصفح، فحتى في ابتعاده عنها لا تزال ترى فيه شيئا من والدها.. وهو يرى فيها شيئا من صفح أمه، ربما لن تلومه على ابتعاده حتى والدها فعل ذلك.

بل ربما لو اقترب منها أكثر ما كانت لتجد وجه شبه آخر بينه وبين والدها، لا بد من الفراق لتحبه إلى الأبد.. كما أحبت والدها الغائب الذي لن يعود، يكفيها أن تعيش على بقيا ذكرياتها وأن تبتسم رغم كل ذلك.

المشهد الثامن: أجرة البكاء على حبيب ما

اقتباس من النص

((الأحياء بعد العشرية السوداء كلهم تخرجوا من مدرسة تسمى الصمت، والذين تكلموا أو شوّشوا أثناء تقديم دروس الدم الهمجية لم يتخرجوا منها.. لأنهم ماتوا جميعا أثناء الحرب.. والناجون فقدوا القدرة على الكلام والقدرة على البكاء من كثرة البكاء.

و الأشد بُؤسا هم الذين فقدوا القدرة على دفع أجرة (النَدّاباتْ) و(الطُلْبَة).. ولا حتى أجرة (الطُلْبَة) لقراءة آيات العذاب فقط، فلكل آية ثمنها ولكل دمعة ثمنها.. ولكل صياح أو بكاء أو نحيب أثمان مختلفة، ومن يدفع أكثر يحصل على عويل أكبر))

أخذت تبتعد عنه شيئا فشيئا.. تحيط بها الصبايا كأنهن الواصفات في حضرة أميرة ما، شعر علاء بأن الأرض تُظلِم وتزداد ظلاما بابتعادها، والشمس لحظتها لا تزال في كبد السماء.

و أكثر ما كان يؤلمه في تلك اللحظات بالذات أنه لم يستطع أن يعرف طبيعة شعوره اتجاهها.. فقد اختلط عليه الحب بالحقد.. وحلم المستقبل الجميل ببشاعة الماضي المؤلم، واقعها امرأة جميلة وروحها كذلك.. ولكن أين يضع الأحكام المسبقة.. التعميم والمسلمات؟

شعوره كان خليطا ممزوجا من أحاسيس متضاربة.. ولم يستطع أن يميز بين الخبيث منها والطيب إلا حين علم وقبل وصوله إلى البيت أن والده وأختيه فارقوا الحياة.. دون سابق إنذار.. فجأة رحلوا.. في صمت غادروا جميعا.. وقاتلهم ليس إرهابيا ولم يسبق له أن قال الله أكبر نفاقا.. ولم يرغمه أحد على الانضمام إلى أي جماعة.

ومع ذلك قاتِلهم يشبه الإرهابيين في صمته فهو لا يجيد الكلمات، ماتوا بغاز سخان الماء ليس إلا.. فالموت عندما يريد أن يصل إليك يملك أكثر من طريقة لذلك.. حتى في أيام السلم.

حينها فقط أيقن علاء أنه لا أحد قد تسبب في موت أمه غير الذي أطلق عليها النار فقط.

خسر في يوم واحد من أيام السلم أكثر مما خسر في سنوات الحرب كلها، في يوم واحد خسر ثلاثة من أفراد عائلته وحبيبة كان يمكن أن تكون عائلته.. كان يمكن أن تكون وطنا يأوي إليه.. وخسر عمرا من اللحظات كان يمكن أن يصرِّح فيه بالحب لكل الذين أحبهم وبادلوه المشاعر ذاتها.

لم يستطع علاء لحظتها أن يبكي لذلك لم يعد إلى البيت سريعا.. خشي أن يُفتضح أمره، كان يجب عليه أن يبكي بحرقة وأن يمزق ثيابه ويبالغ في ذلك ليعلم الناس مقدار حبه لمن ماتوا.. فلا يلومونه بعد ذلك على تقصيره في البكاء.. وفي الحالتين لن يلومه أحد على الحب وعلى التقصير في التصريح به.

هو لم يجرؤ يوما على التصريح بذلك الحب لوالده ولا لأختيه.. ولو لمرة واحدة. ولا هم فعلوا ذلك، ولم تكن تلك مصيبتهم وحدهم.

الأحياء بعد العشرية السوداء كلهم تخرجوا من مدرسة تسمى الصمت، والذين تكلموا أو شوّشوا أثناء تقديم دروس الدم الهمجية لم يتخرجوا منها.. فقد ماتوا

جميعا أثناء الحرب.. والناجون فقدوا القدرة على الكلام والقدرة على البكاء من كثرة البكاء.

و حين أيقن علاء أنه عاجز عن البكاء تماما.. فهم لحظتها لماذا تستأجر العائلات الجزائرية (العدادات أو الندّابات)، وهنّ نساء احترفن النواح بأجرة.. لأنهن وحدهن صرن قادرات على البكاء في الجنائز لجلب قوت العيال لا أكثر.. ربما لا يلتقي الحب والدموع في بلدنا والكلمات؟

لم تكن أم علاء على قيد الحياة لتجلب الندّابات ولتتفاخر بأن الميت عزيز.. ولا أحد سيدفع الأجرة لجب (الطُّلْبَة) ليقرؤوا آيات الرحمة على الأب وعلى الأختين.. لإظهار العزة أيضا.

وحمزة لا يزال في الثكنة يحرس وطننا معرضا للبيع.. تخلي لأجله عن حبه.. ليستعيد الوطن ما نهب من أحلامه.

و لم يكن لعلاء نقود تكفي حتى لجب الطُّلْبَة لقراءة آيات العذاب، فلكل آية ثمنها ولكل دمعة ثمنها.. ولكل صياح، عويل، بكاء أو نحيب أثمان مختلفة.

و حتى في الأعراس تختلف أثمان أغاني المالوف.. وتختلف تبعا لذلك المقامات والنوبات، ويصير صوت

رجل المالوف أقوى وأكثر إقناعا عندما يغني لمن يدفعون أكثر.

"وانا بالبغية تقوى غرامي
أهلكني يا سابغ الشفر
الموت بالأجل والشنايع تتفاخر
مخلي الشيعات يوصلوا لكل بلادي
الله يا معزت احبابي"

ها هو الحزن يخيّم عليه.. وها هي لحظات الألم المتناثرة تجتمع عنده وتتآمر عليه.. تتكاثر وتكبر ككرة ثلج ولكن لم تكن ببرودة الثلج ولا ببياضه.. والموكب الجنائزي يسير من حي الفوبور باتجاه مقبرة في وسط المدينة.

حين توسط الموكب الجسر الحجري الأكبر في المدينة استعاد علاء قدرته على البكاء، بكى بحرقة كما لم يبكي من قبل.

لكنه لم يبكي على أمه ولا على والده وأختيه.. وليس على فراق أناغيم أيضا، بكى على كل أولئك الذين كانوا أسفل الجسر.. عند ضريح يسمونه سيدي راشد يقدمون له القرابين ليحفظ أحبتهم من كل شر.

يقرؤون ويرددون تراتيل التِّوَلَة أو سحر الحب وتعويذاتها.. لجعل أحِبّائهم أكثر تعلقا بهم، دون أن يجرؤوا على المواجهة بكلمات الحب الصريحة إلا أمام القبور.

وقد لا تكون تلك القبور لأولياء صالحين.. قد تكون لِأَحْمِرَة أو بغال أو غربان.. ولكن هذه هي الأعراف والمسلمات.. وبهذه الطريقة فقط استطاعوا أن يعبّروا عن مشاعرهم لكل الذين أحبوهم.

علاء فوق الجسر يشيّع أحبابه دون كلمة حب ولو للوداع.. وتحت القوس الأكبر لذات الجسر أناس آخرون يرتلون كمًّا هائلا من كلمات الحب الصامتة.. معتقدين أن ذلك يحفظ أحبتهم.

و الشيطان جالس دون عمل على جسر الشيطان، جالسٌ على جسر سُمِّيَ باسمه أسفل جسر سيدي راشد.. يستحم في واد الرمال من خطايا بني آدم ويغنِّي طربا.

"سيدي راشح يا ناس قسنطينة
سيدي راشد مولا القبة الخضرة
سيدي راشد داويلي حالي راني مضرور
جيتك قاصد يا سيدي راشد

جاوي وبـخور يا ناس قسنطينة
جاوي وبـخور آ سدي راشد"

***

حين أتم علاء دفن أهله أدرك أن الأحباب لم يخلقوا ليعيشوا معنا دائما.. ولا ليواصلوا معنا الطريق كلها، وأنهم سيرحلون في يوم من الأيام تاركين أكثر من جرح، وربما لن يسمح علاء لقلبه بعد اليوم بأن يحب أحدا آخر.. قد يكون في يوم من الأيام فجيعة أخرى.

الأفضل أن تبحث عن شخص غريب تسرد عليه تفاصيل أحزانك.. تسرد عليه قائمة بكل الذين تحبهم.. تعبِّر أمامه عن كل مشاعرك اتجاههم، ثم يذهب هذا الغريب دون أن يسأل أحدكما الآخر من يكون.. دون أن يتعلق أحدكما بالآخر.

شخصا يشبه البابا تقول له كل شيء وتعترف له بكل شيء حتى بحماقاتك.. دون حب ودون حزن أيضا.

ربما هذا الذي كان يبحث عنه علاء وهو يسير في طرقات وأزقة المدينة القديمة.. باتجاه جسر ملاح سليمان وفي كل الاتجاهات، المهم أن لا يعود الآن إلى بيته وقد عشّش الحزن عنده.

يواصل سيره وتستوقفه إحدى المقاهي القريبة من ذلك الجسر، لا يدري لما توقف هل لأن التعب نال منه؟.. أم لأنه سمع شخصا ما يناديه باسمه؟

حين التفت وجد المقهى فارغة وقد كانت تعج بالفنانين في زمن آخر، اقترب أكثر.. رفع رأسه وإذا بلافتة مكتوب عليها مقهى نجمة.. وعلى جدار ليس ببعيد عنها نجمة سداسية منقوشة ومختبئة خلف طلاء أبيض.. يسهر على تجديد ذلك الطلاء عمال البلدية كل مرة لتواصل النجمة اختباءها، نظر علاء إليها ثانية فبدا له أن رؤوسها الستة تتحرك.

ربما كان متعب الذهن ولذلك صار يسمع ويرى أشياء غير عادية.. قرّر أن يواصل سيره ولكن فضوله دفعه ليرفع رأسه للمرة الأخيرة.. وإذا بالنجمة تستحيل امرأة أو خيال امرأة جميلة بتفاصيل غير واضحة.

بدت له أن تلك المرأة لها ستة أطراف.. رجلين وجناحين.. رأس ورداء طويل غطى جزءا من شعرها وتدلى خلفها، امرأة تشبه تلك التي رأى خيالها في واد الرمال في آخر زيارة له.

مد يده ليفرك عينيه وليتأكد من أن الذي يراه حقا هو امرأة طائرة.. فتلاشت المرأة فجأة وغاب الصوت وبقيت النجمة مكانها، شعر لحظتها بقشعريرة تسري

في جسده كتلك التي أحسها حين كان جالسا في المسرح قريبا من أم أيمن.. يسمع تمتماتها.

واصل سيره باتجاه واد الرمال ينظر أمامه حينا ويلتفت أحيانا أخرى.. يريد أن يصل إلى أعماق ذلك الوادي أو (الريميس) كما يسميه أهل قسنطينة.. ليضم كمنجته وحبيبة تجيد العزف.. تجيد الغناء.. تجيد الرقص.. تجيد الضم.

و ربما الكمنجة هي الشخص المناسب.. هي البابا الذي يمكن أن يبوح لها بكل أسراره وأحزانه أو خيرا منه.. فهي تجلس في حجر الذي يبوح لها بشيء ما ولا تختبئ خلف الحُجب والستائر، هي الوحيدة القادرة على البكاء دون أجرة.. ووحدها تجهر بالتراتيل لتقتل فيه رجلا وتحيي آخر.

حين وصل إلى الكمنجة وعانقته عناق بناتٍ لا يمشين إلا على النمارق.. وعدها حينها أنه لن يمنحها جزءا من وقته بل الليلة كاملة.. وبحضور تلك الجنية التي كان يُحسّ بقربها منه ولكنه لم يكن خائفا منها.

فعندما تشعر أنك من عالم الأموات فإن الأحياء هم الذين يخيفونك، تلك الأرواح تصير بالنسبة إليك مسلِّية ومسالمة، وربما لم يعد خائفا منها لأنه صار يراها ويسمعها في قسنطينة كلها.. وليس في واد الرمال فقط.

بدأ يعزف ومعه بدأت تلك الجنية في الاقتراب أكثر فأكثر، شعر بالاضطراب وهو يراها تتجسد في صورة امرأة مَهِيبة رغم جمال خيالها.. وعذوبة صوتها الرخيم الأغنّ وهي تلقي التحية.

تمالك نفسه وواصل العزف وهي تستوي جالسة أمامه.. تسمع وتستمتع بما يجيده، وإن رأته يخطئ في حمل الكمنجة.. أو يسيء في تحريكه للقوس.. أو لاحظت نشازا ما في النغمات أظهرت امتعاضها.

استأنس بقربها وهي تحدثه عن المالوف.. هي تعرف كل شيء عنه.. وحين سألها عن نوباته خصوصا تلك التي اندثرت كتمت علمها وتهرّبت.. كأنها لا تريد أن تنقله إليه وتريد أن تستأثر به لنفسها ولدينها، ربما هو دليلها الوحيد على وطنيّتها وانتمائها لقسنطينة وللجزائر كلها.

كانت تحدثه فقط عن تاريخ شيوخ المالوف اليهود القسنطينيين.. وعن تراتيل المالوف المقدسة لديهم، لازالوا إلى يومنا هذا يتلون المالوف تراتيلا.. بلهجة قسنطينة وبلباس قسنطيني وبحب خفي لقسنطينة، يترنحون عند ذكر اسمها وذكر شوارعها العتيقة.. يحِنُّون إليها.. يلهجون سرّا بحق العودة.. وبالانتماء المزعوم.. وبالصلة المقطوعة.

دعته الجنية **كاهنة** تلك الليلة للمبيت في إحدى مغارات وكهوف قسنطينة السبعة التي اتخذتهم قصورها، وحين جلسا سويا داخل كهف (الأروى) غير بعيد عن مغارة (الدببة) يطلان على واد الرمال.. واصلت حديثها عن شيوخ المالوف.. وعلاء يلاحظ تأثرها الشديد كلما ذكرت اسم ريمون لريس.

دون أن تقول أن المجاهدين قتلوه وهو لم يحمل يوما سلاحا، ربما لم تقل ذلك لكي لا تسمع من علاء أشياء تكرهها.. عن المنظمة السرية **OAS**.. عن الأقدام السوداء.. عن تفضيل الجنسية الفرنسية وعن دخول التاريخ من خلال البول على الجامع لخضر، وأشياء أخرى عن كل أرواح المسلمين التي أُزهقت.

اكتفت وهي تتنهد بقولها:

- إن المسلمين واليهود في قسنطينة جمعهم حب المالوف.. وحب الاستماع إليه في لياليها الحالمة بتراتيله، وحده المالوف كان يجمعهم.. ووحدها الكمنجة كانت جسر التواصل بينهم.. أوتارها حباله.. وعنقها الطويل عموده.. وسير قوسها على الأوتار ذهابا وإيابا زيارات خاطفة لعوالم مختلفة.

وحين تعلوا الأنغام ويشتد الحنين ويتذكر كل واحد حبيبته.. يصلي الجميع ويدعو كل منهم خفية حسب شريعته.. وبلهجة مشتركة.

وقد يحلو لأفراد الطائفتين قبل تلك الليالي لعب مباريات كرة القدم في حي الرصيف.. والحكم بين الفريقين يهودي في يوم ومسلم في يوم آخر، فإن كان مسلما فاز المسلمون وإن كان يهوديا فاز اليهود.

و يجب على الحكم أن يغادر الملعب عند نهاية المباراة بالسرعة المطلوبة.. وقد لا تستطيع أن تلومه على فعله ما دامت المباراة أجريت في قارة سمراء.

اللوم كل اللوم حين تجرى المباراة في قارة أكثر بياضا.. وحين يفوز فيها اللاعب بكأس العالم يفتخر به أهل ذلك البلد، وينسبونه إلى أصله العربي حين ينطح ماتيرازي.

وربما ستتغير مفاهيم العالم بأسره حين يلعب الجميع كرة القدم على أرض عربية.. شريطة أن يغيّر العرب أيضا مفاهيمهم.. ويتناسوا قول زوجة الحجّاج "و ما هند إلا مهرة عربية تحلّلها بغل.. فإن ولدت فرسا فلله درها.. وإن ولدت بغلا فأبوه بغل".

طال سمر علاء مع تلك الجنية التي لم تتوقف عن سرد أحاديثها الطريفة التي تعود لعقود ولقرون

مضت.. إلا حين أطل قرص الشمس ولامست أولى أشعتها صخور الكلس، حينها فقط سكتت.. وقام علاء ليودعها وهو يسألها عن باب دارها أو باب الكهف يريد أن يخرج.

لم تمانع وقالت بصوت خافت وهي تفسح له الطرق:

- "لقسنطيني والفَارْ ما تْوَرِيلْهَمْشْ باب الدرا".

فالقسنطيني أيضا غير مؤتمن حسب اليهود.

حينها التفت علاء إليها يريد أن يرد على كلامها بكلام كانت تردده جدته.. فرآها تتثاءب وقد غلبها النعاس.. وتريد أن تتجسد في تمثال نصب الأموات، فهم أنها لا تقصد بكلامها أي شيء.. فقولها لا يعدوا أن يكون مُزاحا وموروثا شعبيا فقط.

ابتسم لها علاء وغادر.. ولكنه لم يكن يريد أن ينام.. بل يريد أن يجد عملا ليكون بإمكانه دفع أجرة الطُّلْبَة والنَدَّابَات، فقد يفقد حبيبا آخر في أي لحظة.. وقد يكون هو الفقيد المقبل لأحباب لا يملكون القدرة على البكاء عليه، يريد أن يترك لكل الذي يحبونه خفية.. ميراثا من دنانير تستر عيب عيونهم التي جفت من فرط البكاء.

***

يريد أن يعمل ليملأ وقت فراغه.. ليخفف من شعوره بالوحدة والحزن وأن يتناسى كل الذي جرى له.

يريد من عمله هذا أن يكون رسالة لأخيه مضمونها رفض طلبه بالانضمام إلى الجيش.. دون أن يواجهه بذلك.

ليلته الأخيرة أشعلت فيه الرغبة ليواصل حلمه مع أناغيم رغم بشاعة الماضي.. ويعلم جيدا أن انضمامه إلى الجيش يعني أن ذلك الحلم لن يراوده مجددا، إن انضم إلى الجيش سيكسب شرفا ولكن سيعين بذلك الماضي ليهزم الحب.

وبعد موت الأب والأختين حمزة لم يعد في حاجة لتضحية أخيه علاء، بإمكان كل من الأخوين أن يحقق حلمه دون انتظار الآخر.

مرة الأيام دون جدوى ودون أن يجد علاء عملا فالبلد قد خرج لتوّه من الحرب، لازال يضمّد جراحه التي لم تبرأ ويكفكف دموعه التي لم تجف.. ومؤسساته مخرّبة لم تفتح أبوابها بعد.

لعل الله استجاب دعوات عمال مؤسسات الدولة في الأيام السمان.. قالوا (ربي يعطيها لْـخْلا) أو الخراب،

وقالوا أيضا (تاع البايلك) فهي ليست ملكهم، فعوقبوا بالأيام العجاف إذ لم يقدّروا النعمة ولم يحمدوا.

و أصبح الفقر في الجزائر مخيفا أكثر مما هو عليه في أي مكان آخر.. لم يتغير الفقر ولا تغيرت ملامحه يوما وإنما تغيرت القلوب بعد العشرية السوداء وقست .. وإن تصالحت العقول.

مُنع الماعون وأُغلقت الأبواب بعد أن كانت البيوت بيت واحد له باب واحد، بيت كبير يسمى (دار الجيران)، لم يكن الجزائري ينام وجاره جائع ولكن كل شيء تغير.

حياة علاء أيضا تغيرت كثيرا بعد موت والده وأختيه فقد دخل الجامعة الإسلامية ليواصل دراسته.. وليحقق أمنية والده الأخيرة في أن يكون رجل دين، ودفعته الحاجة ليصير محتالا على الأقل في نظر القانون.. فقد بدأ يعمل كسائق سيارة أجرة ودون ترخيص من مديرية النقل.

مفتي المدينة أيضا يرى أن هذا العمل هو احتيال لذلك حرّمه.. إلا أن علاء لم يهتم لذلك كثيرا فهو يعرف أن هذا المفتي يملك شركة نقل، يكفيه أن حمزة وافق على عمله هذا وأعطاه مركبته.. كأن حمزة يريد

منه أن يمضي في تحقيق حلمه، أو أنه يريد أن يجعل لأخيه مصدر رزق ليتفرغ هو لشيء ما.

لما فكّر علاء في العمل ك(فرودار) كان يعتقد أن امتلاك مركبة شرط كافٍ لمزولة هذا العمل.. ولم يكن يتصور أن عليه أن يجد وساطات ليستطيع ركن سيارتك في إحدى المحطات الفوضوية للفرود، كان يظن أن الوساطات تقتصر على الوظائف التي تعلن عنها مؤسسات الدولة وإداراتها فقط.

في اليوم الأول من بدء علاء لهذا العمل رفضت سلطة غير قانونية الموافقة على عمله هذا الغير قانوني، وهذه السلطة مشكّلة من السرّاق والمنحرفين والمجرمين الذين لهم الكلمة في قبول موظف جديد.. يضاف إلى عشرات الموظفين الوهميين في المحطة الواحدة.

و لكل شارع محطة ولكل محطة رئيس ومجموعة تأثير لها الفضل في قبول أو رفض موظف أو محتال جديد.. والميولات الشخصية هي معايير الانتقاء.

كان علاء يجهل أن من شروط هذا العمل أن تكون أخلاقك سيئة قليلا ووقحا بما فيه الكفاية.. فذلك ضروري لبدء هذا العمل وضروري للبقاء والاستمرار.. لأن الرئيس سيكون في الغالب سكّيرا

والزملاء في العمل منحرفون، وأغلب الزبائن لصوص وبائعي مخدرات وخمور.

سيعمل المحتال على نقل المشبوهين وتجار اللحوم النتنة بعلمه أو دون علمه.. سَيُقِلهم وسيُقل عائلات محترمة أيضا، وسيتستر على بعضهم خوفا وعلى البعض الآخر حياء.

لا زال علاء يذكر اليوم الأول بكل تفاصيله وجزئياته.. وبعدها لم يعد يذكر أي يوم من أيام هذا العمل.. فكلها تتشابه.. وكلها تشترك مع اليوم الأول في التعب والبُؤس والخوف.

يومها ركن سيارته لأول مرة قرب محطة للحافلات.. خلف عدد كبير من سيارات الفرود التي شكلت صفا مستقيما خارجا عن القانون.

تقدم كبير مجرمي الحي نحو علاء مزمجرا ومتوعدا.. وهو يلف بأصابع يده ورقا شفافا على حشيشة تسمى (الشمّة) حتى صارت كحبة تمر عفنة بين أصابعه.. ليدفع بها تحت شاربه العلوي ويرتفع شاربه حينها عاليا كشرفة بيت قديم.

ربما هو بفعله ذلك يريد أن لا ينطق الحروف التي مخرجها الشفتين فكلُّها مرققة.. يريد هذا المجرم أن يترك للسانه فرصة لنطق كل الكلمات النابية المشكلة

من الحروف المغلظة.. لِيبدو أكثر قوةً، وليته لم يتكلم رائحة فمه كانت أكثر إقناعا بقوتها.

لم يفهم علاء لحظتها من هذا؟ وبأي حق يتكلم معه بهذا الشكل؟ لم يكن يعلم أن هذا المجرم هو رئيس لمحطة الفرود التي ركن فيها سيارته.. وأن عليه أن يدفع له كل يوم على رعايته السامية أو تنظيمه لهذا العمل.. أو لأي سبب ظاهري آخر أو غير ظاهري.. فادفعوا لرئيسكم لتأمنوا شره.

تماما كما في الدول الديموقراطية.. بل أكثر ديموقراطية منها.. فلهذه الدولة الوهمية رئيسان أحينا، رئيس يقبض في الصباح وآخر في المساء.

يختلفان في شكلهما المقزز ويتفقان في سلطتهما الوهمية.. وفي حق الحصول على النقود دون مقابل من موظفين فوق العادة يُسَمَّوْن محتالين.. والجميع يحتال عليهم والمسؤول كبيرهم الذي علمهم الاحتيال.

و ما دمت تعمل خارج القانون فعليك أن تدفع لأناس أكثر خروجا عن القانون.. مهما كانت حرفتك أو تجارتك، بل حتى لو كنت تعمل في إطار قانوني ففي الغالب عليك أيضا أن تدفع المال للصوص.. ليحرسوا متجرك فلا يسرقوه ليلا.

وفي الجزائر لو كنت تملك مركبا فعليك أن تدفع كلما توقفت حتى ولو لشراء قارورة ماء، توقف فقط أمام بيتك إن لم ترد أن تدفع.

أما إن وجدت كيس الحليب المدعم فعليك أن تتوقف وتدخل في طوابير طويلة.. قد لا تجد الحليب في مكان آخر، أنت محظوظ لحظتها والقدر وحده وفّقك لإيجاده، وقد يكون كيس الحليب قضية الشعب وقضية المسؤول حلب البقرة.

يتقدم أول زبون ويتفاوض مع أكثر من فرودار.. ليختار في الأخير الأقل أجرة أو الأفضل مركبا أو الذي يوحي وجهه بالأمن للزبون.

أو ربما الأكثر وسامة وشبابا والأكثر إغراء لمن ليس لها حظ في الزواج.. فتبحث عن ذلك الحظ باستئجار سيارة فرود من غير حاجتها الملحة إليها.. هي تريد أن تشتري سائقها زوجا ولو في مخيلتها لبعض الوقت.. وترى نفسها لحظتها سيدته والقادرة على دفعه للاقتران بها لولائه لسلطتها النقدية.

خرج الفرودار الأول مع أول زبون أو زبونة وخلا مكانه الأولى في الصف.. ليندفع ليكونديستان جميعا باتجاه ذلك المكان لاحتلاله وكأن الرزق لا يعرف

مكان آخر.. لتعم حينها الفوضى وترتفع الصيحات والسب والشتم.

تقدم رئيسهم لينهاهم عن الفوضى وهو الأكثر فوضوية.. ولا سلطة له غير سلطة تنتهي حين يُدفع له.. ولا يَدفع الجميع فمن كان من أصحاب العضلات المفتولة أو كانت له سوابق عدلية توازي السوابق العدلية لرئيسه فله الإعفاءات.. وحدهم الضعفاء يدفعون تزجرهم العصا الطويلة أو (الهراوة) التي يحملها رئيس المحطة أو (شاف سطاسيو).

كثر الزبائن وكثرت حركة ليكلونديستان وإذا بسيارة شرطة قادمة مرسلة إشارات ضوئية وأخرى صوتية، قفز كل المحتالين إلى سياراتهم يديرون محركاتها.. وكما يحدث مع قطيع الغنم عند ظهور الذئب يندفع الجميع في أكثر من اتجاه.. وكما تفعل الفئران أيضا حين ترى قطا.. الجميع يبحث عن جحر للاختباء.

و ما هي إلا لحظة حتى صار الشارع خاو من المحتالين.. فظهور سيارة الدولة كاف لإزالة دولة المحتالين.. يضحك الجميع على هذا المشهد أو على هذه المسرحية الهزلية.. حتى رئيسهم لا يبخل على نفسه بالضحك.. وليس هناك رئيس يضحك على زوال

دولته غيره، ربما لأنه يعلم أن رعيّته لم تختره يوما، أو ربما لأنه متأكد من أن دولته ستعود مع كل زوال.

مرت سيارة الشرطة مسرعة دون أن تتوقف في هذه المحطة.. وبما أن سائقها أعطى إشارات قبل وصوله فهذا يعني أنه يريد أن يظهر قوة الدولة دون استعملها.

إنذار كاذب وبنفس سرعة اختفاء المحتالين يعودون من كل حدب وصوب.. ومن كل الاتجاهات.. وهدفهم واحد هو الأماكن الأولى للمحطة.. والأكثر حظا والأسرع مركبة والأسوأ خُلقا من يظفر بصدارة صف سيارات المحتالين.

مرت الأيام سريعة ومرت أكثر من سنة لم يرى فيها أناغيم.. لا يدري كيف اصطرب على فراقها، ربما شغلته عنها دراسته بالجامعة الإسلامية، وربما أنهكه عمله الذي يشبه رحلة طويلة من غير وجهة محددة.

و حرقة فراقها أبردتها دموع كمنجته التي لم تعد تفارقه أبدا.. هي تختبئ في الصندوق الخلفي لسيارته تقاسمها في ذلك الصندوق حقيبة دروسه.. وبعض ألبسته وأغراضه الخاصة، طبيعة عمله تفرض عليه أن يكون مستعد للسفر في أي لحظة.

تذهب معه الكمنجة أينما حل وارتحل.. وتدخل معه كل الأماكن إلا المقدسة منها، هي لا تضع على أوتارها خمارا.. وفتنتها ظاهرة للعيان، ولا تمانع أن تبقى خارج الجامعة الإسلامية يكفيها قليل من الحب وقليل من القرب ولو سرا.

صار علاء يرى نفسه أمام سحر نوتاتها عاجزا، كأنها مهرة عربية تطلب مزيدا من القرب، تحتاج فارسا يمتطيها.. يركبها ويلقي بصولجانه أو يحركه على أوتارها وهو يشعر بكيانها، وتشعر هي به إذ ترتعش بين يديه وهي تصرخ غناء في دلالها، فإن ضرب بصولجانه أوتارها بقوة وأشبعها قربا تمرغت حبا وسابقت الريح أصواتها، هناك فقط لن يشعر بالعجز أمامها وقد أشبع بما فيه الكفاية غرورها.

لذلك شعر أنه يجب عليه أن يجاريها وإلا ضاعت منه، يريد أن يتقرب إليها أكثر لا يريد أن يخسرها كما خسر أناغيم، الكمنجة قبلت بحبه الخفي وفهمت صمته.. يكفيها قربه، وتغنيهما معا النوتات عن كلمات.

المشهد التاسع: العجز عن العزف على عتبات مدرسة الحب

اقتباس من النص

((كان يصارع ذاته ليعلن الحب ويتغلب على ضعفه.. خوفه وصمته أيضا، وتنفس الصبح القريب دون أن يسمع (واش حوالك يا علاء).. يومها فقط استطاع أن يميّز بين الليل والنهار.. وأن الصباح الذي لا تسمع فيه صوت حبيبك هو جزء من الليل مع تمرد الشمس فيه، ذلك الصباح هو الليل ذاته أو الليل الأكثر عتمة.. فهل من رجوع سيدتي؟)).

... بحث علاء عمّن يعلمه كيف يكون قريبا من الكمنجة.. كيف يحمل القوس، وكيف يجعله ملاصقا لأوتارها أثناء العزف.

كيف تُعزف النوتة وكيف تخرج النغمات السرّية دون نشاز.. كيف يَكبت أنفاس الأوتار دون أن تنقطع النغمات والحب الخفي بينهما.. وكيف يكون كل ذلك دون علم زملائه في الجامعة.. هو لا يريد لأحد أن ينكر عليه ذلك الحب وذلك القرب.

لم يجد من يعلِّمه العزف سرا؟ فالجنية تأبى وتكتم علمها، ومدارس المالوف تعلِّم العزف والحب جهرا.. فاختار لذلك أبعد تلك المدارس ليُبقي على شيء من تلك السرية.

كان سعيدا ومضطربا وهو يقف أمام تلك المدرسة.

سعيدا لأنه لن يكون بعد اليوم عاجزا ومبتدئ في العزف على الكمنجة.. ولن يكون عاجزا ومبتدئ في الحب أمام كل أنثى.. هو يريد أن يتجاوز التراتيل الخفية في الحب إلى تراتيل علنية.

و كان مضطربا رغم سعادته تلك.. فصوت آخر من داخله كان يفسد عليه تلك الفرحة ويذكّره بقول والده.. ويردد عليه مرارا أن الأمور الواضحة العلنية

قلّما يكون فيها شيء من الريب والشك.. والخفيّة والسريّة منها مَدعاةٌ للحيرة ولتأنيب الضمير.

تذكر علاء قول والده لأنه اختار مدرسة المالوف الأبعد عن بيته.. وعن جامعة العلوم الإسلامية، يريد أن يتعلم العزف بعيدا عن كل الذين يعرفونه.. وأن يحمل كمنجته متخفية في كيس أسود ليس على مقاسها.. ولا تظهر من خلاله مفاتنها.

هو لم يكن متأكدا بأن الذي يُقدم عليه هو الأفضل.. وأنه سيجد من خلاله ذاته، فالتناقض بين مدرسة المالوف والجامعة الإسلامية تناقض صارخ.. وكل منهما يدعوا لشيء مختلف.

لكن فضوله ورغبة سرية ما بداخله كانا يدفعانه للأمام.. هو يتمرد على ذاته باحثا عن زاوية أخرى للراحة وللسلام الداخلي غير التي أتاحتها الأعراف، الالتزام والمسلمات.

لذلك حزم علاء أمره وانتهى، لا بد من الدخول ولا بد من المواصلة.. حينها فتح باب المدرسة شيخ طاعن في السن مع أول طرقٍ عليه، كأنه كان ينتظر طارقا ما بفارغ الصبر، وكان هذا الشيخ هو المعلم، المدير وأيضا الحارس.. فلا أحد مهتم بتعلم المالوف وبتعلم العزف على آلاته.

- تفضل يا ولدي لقد جئت في الوقت المناسب.. سنبدأ اليوم دورة تكوينية لتعلم العزف.. واليوم درسنا الافتتاحي، لدينا بعض الصبايا يردن تعلم العزف أيضا.. وصلت إحداهن وستصل الأخريات بعد قليل، سنشكل فرقة رائعة، سأعلمكم كيف تركِّبون الآلات وكيف تفككونها.. وكيف تحفظونها لكي لا تتلف، وأيضا كيف تحملونها وكيف.. وكيف.. وكل هذا قبل بدء تعلم العزف.

فكان هذا الشيخ ممن يحب أن يقول كل ما يعرف دفعة واحدة ودون أن تسأله، ربما هو معذور.. فقد كان يصدح بحنجرته القوية وصوته الجهوري في كل أعراس أبناء المدينة.. وفي كل الأماكن والمناسبات.. لكنه الآن يستعمل ذات الحنجرة للحديث عن المالوف حين يجد من يستمع إليه.

و لم تعد حنجرته بنفس القوة.. فالمداخيل لم تعد تكفي لشراء عسل النحل لصيانتها كما يصون كل آلاته التي تفتقد للتشحيم أيضا.

واصل الشيخ حديثه لعلاء وهو يسير جنبه ويفسح له الطريق لحجرة الدراسة.. وكان حديثه كنوبة مالوف طويلة توقف بها عند المقام الأول.. حين فتح لعلاء باب تلك الحجرة وذهب ينتظر الصبايا.

واصل علاء دفع الباب فسلّم صريرها على من في داخلها قبل أن يلقي علاء السلام، وكيف للباب أن لا يسلّم على من في داخل القاعة وداخل القلب.. والتفتت ترد السلامين معا.

سلاما حبيبي سلاما.. وعليك السلام يا قلبي.. كيف سيحل فيك بعد اليوم السلام؟ والتقت العيون ثانية وكانت الصدفة "وما أجمل الصدفة إنها خالية من الانتظار".

وما أصدق تراتيلك فيها يا رجل المالوف.. امنحني حنجرتك وجرأتك لأغني لها حبا كل تلك التراتيل.

"وانـا بالبـغية تقوى غـرامــي
أهـلكـني يـا سابـغ الشـفر
حين وصلت لمدينة الهوى عقلي طايـر
اقدمت على الموت في رضـى نجمة مرادي
وانا ادخلـت عـقب الظــلام الله يــا ســود
الـريـامي"

ها هي ذي أمامه جالسة على كرسي تحمله إلى عليائها أكثر مما يحملها.. ها هي ذي قد عادت.. ولما

عادت مجددا وقد بدأ يُشفى منها؟ أو هكذا حاول إقناع نفسه طيلة فترة افتقاده لها.

هل عادت مجددا لتكتب أسطر الحب التي لم تكتمل بعد؟ أم لتضع النقاط على أسطر الحب التي كتبت من قبل؟ أو ربما هو الذي عاد إليها لتقتله أو ليشفى منها.. فهي الداء والدواء، أو ربما القدر هو الذي ضرب لهما هذا الموعد لشيء ما.

ها هي ذي أمامه ما أجملها وهو يقف أمامها.. وهي وحدها وهو وحده أمام جمالها.

- واش حوالك يا علاء؟

يبتسم.. يحمد ثم يسكت.. يعجز عن جوابها، أي إنسانة هي وبأي لغة تتحدث، أو بأي قلب يسمعها "يا ما وراء طبيعة الإنسان يا نفسية الشطآن يا لغة الفلك"، وهل يجيبها وهو لا يعرف كيف هي أحواله.. فحاله بعد الزلزال ليس كحاله قبله.

لا يدري هل قامت إليه أم جلس إليها.. هو بعيد عنها بقدر قربه منها.. هو في الداخل تسأله، تستفزه، تشعره نفسه بأنه خان صورته في ذهنها.

ما الذي جاء بك إلى هنا أيها المتدين؟ تسأله في سرّها، ويسألها في سره لما جئتِ أنت أيضا إلى هنا؟

شعر لحظتها أنه يفضحها وتفضحه سرا.. وذنبهما حب ومزمار واحد.

و هل فعلها المسيحي بهديته فقتل فيه رجلا وأحيا آخر.. كما قتل شيخه أمه وأحياه هو حين علمه القرآن؟

كان علاء يشعر بذنبٍ يتقاسمه مع الكمنجة من غير سويّة، وأناغيم تشعر بذنب أقل، فقد اختار لها الحاسب الآلي تخصص الفنون الجميلة رغما عنها.. لتواصل دراساتها الجامعة.

ولكن إن لم يكن شعور الذنب لديها ذاته لماذا اختارت هذه المدرسة البعيدة أيضا عن بيتها؟ أم أن القدر وحده الذي يختار؟ وهل سيجمعهما المالوف كما جمع أجدادهما حبه وحب الاستماع إليه في ليالي قسنطينة الحالمة بتراتيله؟ وفي أحيائها العتيقة كلها.

و كانت يومها الكلمات بينهما قليلة والنظرات الجريئة الصريحة أقل، كانت تريد أن تعرف ما الذي يحمله في ذلك الكيس الأسود دون أن تسأله، وكان يريد أن يعرف ما الذي تحمله في قلبها اتجاهه دون أن يسألها أيضا.. وتحاشى كل منهما أن يسأل الآخر عن سبب المجيء إلى هنا.

كان كل منهما يريد أن يمتلئ من الآخر وأن يعرف ماذا جرى له، وماذا صنع بعد آخر لقاء، وكان حنينهما

للماضي القريب يجرّهما إليه دون قصد.. لحظتها دخل شيخ المالوف مع الصبايا اللاتي تخلفن بقدر.

أخذ كل مكانه.. والتقطت أناغيم حقيبتها وهي تجلس لتفسح لعلاء مكانا ليجلس جنبها.. دون أن يفصلهما أي كرسي شاغر.

تذكر علاء حين استوى جالسا محمود درويش.. وتساءل سرا وحدّث نفسه، كيف أصابك شتاء **ريتا** يا درويش وقد سَجَّلَتْ الأجيال أنك عربي؟ تبا لك إن كنت خدعت الأجيال.. وتبا لـ(ريتا أو تامارا) الحسناء الصهيونية إن كانت هي التي خدعتك.. وهي تنام في حديقة جسمها.

تبا للحب إن كان هو خديعتنا الأبدية، لذلك سأحكّ قدمي ولن أحكّ قدمك كما طلبت، وسيفعل كل العشاق سيِّئي الحظ ذلك كما قلت يا درويش.

بدأ الشيخ بعد الترحيب يحدّثهم عن تاريخ المالوف وعمره الذي تجاوز ستة قرون، وعن دخوله لسيرتا (قسنطينة قديما) مع الهجرة الأندلسية إليها.. على أيام الدولة العثمانية.

و أن اليهود لعبوا دوراً كبيرا في تطويره والحفاظ على نوباته التي اندثر بعضها بعد خروجهم من قسنطينة.. بل ضاع نصفها وبقيت اثنا عشر نوبة فقط.

و فقد المالوف روحه بفقدانه لنوبة البياتي من مقام الشجن والحنين.. التي لا يجيد تأديتها غير الفنانين اليهود، فقد أبدعوا كما أبدع القسنطينيون في المالوف.

لم يكن علاء مهتما بكلام ذلك الشيخ فقد شغله عنه قربه من أناغيم..كان يتشرّب قربا يخزّن ويستزيد من تتبع حركاتها.. أنفاسها وخط يد على الورق.. وحرارة ينقلها الخشب.. من قال أن الخشب لا ينقل الحرارة والكلمات.

وأَكثرَ من استراق النظر لوجهها.. فأصابه شيء من سواد عيونها المعتّقة خمرا.. فسكر دون ذنب يذكر.. ولا هو تذكر.. كيف عاد إلى البيت "كالريشة تحملها النسمات".

وتوالت الأيام واللقاءات الثلاثية الوتر التي لا تقبل أن يكون اثنان فقط، وصار لعلاء أكثر من سبب للمجيء إلى هذه المدرسة.

مكّنته هذه الدورة التكوينية من أن يكون قريبا من أناغيم، وصار ذلك أهم عنده من الدروس المقدمة.. فعجزه أمام الكمنجة الأنثى المعزوف عليها بدأ يتلاشى.. كما بدأ يتلاشى عجزه أما الأنثى الكمنجة العازفة.

بدأ يجيد العزف من داخله قبل أن يبدأ العزف بالحواس.. ودون أن يصل إلى مرحلة الجهر بالتراتيل.

لا زال يذكر ذلك اليوم الذي سألته فيه أناغيم عن الفن وعن العزف.. وماذا يعني له؟ عجز لحظتها أن يجيبها فهو لا يجيد دندنة الفنانين وليس منهم، ويعلم أن مداعبة أوتار الكمنجة لبضعة أشهر لا تصنع فنانا، ربما لا بد من إحساس مرهف أو فعلٍ استثنائي أو قولٍ يتجاوز الكلمات.

كان بإمكانه أن يقول لها أي كلام مهما كانت طبيعته ليتهرب من سؤالها.. سيقنعها ذلك فهي أيضا لا تعرف شيئا عن الفن، وقد لا يكون سؤالها هذا إلا وسيلة لإرغامه على الكلام لتسمع صوته فقط، وفي الأخير ستبتسم لأي رد منه.. دون أن تنسى الدفع بطرف لسانها لتتفقد نعومة شفتيها.

و لكنه فضّل أن يحدثها عن شيء يعرفه.. يتقنه ويحبه، لم يكن متأكدا بأن الحديث عن تلاوة القرآن يصلح كأجوبة لأسئلة عن الفن ولكن لم يكن هذا يهمه.

المهم بالنسبة إليه أنه لا يبدع إلا حين يحمل القرآن، حين يبدأ في تلاوته بصوت رخيم تتراقص فيه الحروب المنبعثة من فِيه.. وهي تعلو في رقّتها

وفخامتها بخفة لتصل كل الآذان وتدخلها دون طرق.. كنسمات صباحية لطيفة.. تتفاخر بمدودها الطويلة والسكون والهمزات، وتسود الميم والنون والغنّات.

لا يعرف علاء الالتزام بالأوزان والقوافي إلا حين يجوّد القرآن.. ولا يستأنس بالمقامات الموسيقية إلا حين يسمع الفنانين القُرَّاء، لحظتها فقط فرائسه كانت ترتعد ويتلاحم مع القارئ الفنان ليصيرا جسدا واحدا.

تعجبت أناغيم من كلامه وسألته:

- لماذا إذن هذه المدرسة؟ وماذا يعني لك المالوف؟

كان يريد أن يقول لها جئت أبحث عني أمامك، أردت أن أتعلم كيف أتماسك حين أراك.. كيف لا أذوب حين أقترب منك وكيف لا أذبل حين أسمع صوتك.

لكنه قال لها:

- إن الذي شدني للمالوف هو العربية الفصحى التي يُغنّى بها.. وأنه مرتبط بالمدائح الدينية؟

و هو يعرف أن المالوف أحيانا يفتك باللغة وبقواعدها.. وله شق دنيوي آخر غير الديني يتغنى فيه بالمرأة وبجمالها، ولم يكن ذلك ليغيب عنها.

فسألته عن الكمنجة وقد اكتشفت أمرها.. وتذكرت أنها هدية الأستاذ رافائيل له حين أتم حفظ القرآن.

وقف حينها أمامها ساكتا يتأملها ويتأمل حركة لسانها وشفتيها دون أن يجيبها، وبما يجيبها وله مع كل سؤال لها جوابين أحدهما يعلنه والآخر يضمره؟

فقال في نفسه الكمنجة هي أنت.. أحملكِ حين أحملها.. أوتارها شعرك الذي أرى سواده المخمور بذات لون العينين تخيلا، وبالتخيل ذاته يعزف على شعرها منفردا.. بيد منفردة.. في يوم منفرد من سنة حب كبيسة قد لا تأتي.

وهل يقول لها إن الانحناءات الجسدية ذاتها.. والنعومة أيضا ذاتها؟ وهو يواصل تخيلاته وكلامه الصامت.

لم يقل لها كل ذلك الكلام، ولم يقل أيضا أن الكمنجة بسحرها الخفي أخذت تزاحم القرآن في قلبه متسللة إليه.. فمستلة له إلى عوالم المالوف، ولا قال أن الكمنجة قاسمته حزنه وحنينه ببكاء أوتارها.. ولو من دون دموع.

هو مدين لها على تحريرها لدمعة قيّدتها عيون الحياء.. فلم تعرف لها طريقا إلى وجنتيه.. فحرّضتها الكمنجة على التسلل ليلا حين خلا كل حبيب بحبيبه.. وشيّعتها الكمنجة وهي تحرق أوتار صوتها بكاء حين انكسرت الدمعة لتفلت من القيود.

ربما هو ذاته لا يعرف بالضبط ماذا تعني له الكمنجة؟ وما الذي يغريه في المالوف؟ نوباته أو مقاماته، أو ربما الحركات الخمس للنوبة الواحدة (مصدر، بطايحي، درج، انصراف وإخلاص) كما في المالوف القسنطيني.

أو ربما لأنه مع المالوف لا يجد نفسه مقيدا بعرفٍ أو قانون في الحب أو في التفكير.. مثله تماما غير مقيد بالأوزان والقوافي، وإذا كان للشعر ضرورة فللمالوف ضرورات أخرى.

و إذا كان محبوب النحوّية وسائلها لم يستطع أن يرغمها على الضم في قوله:

"ونحوية سألتها يوما: أني أعربي لنا
حبيبي عليه الحب قد جار واعتدى
فقالت: حبيبي مبتدأ قال ضمّيه إن كان
مبتدأ"

فإن رجل المالوف يستطيع أن يضم من شاء ومتى شاء.. فَضَمَ لفظ الجلالة (الله) وقد ورد مجرورا بحرف القسم (باء)، فقال: "باللهُ يا حمامي أرسل معاك كتاب لمن يهوى غرامي خلفني في التهاب"

فعندما يريد رجل المالوف أن يضم حبيبا فإنه يفعلها.. وإن كان المضموم هو المبتدأ المجرور.

فالحديث عن الحب عند أصحاب المالوف جنوني إلى حد الاعتداء.. ولا شيء يُلتزم به أو يُوقف عنده في الحب وفي المالوف، ولرجل المالوف حرية مطلقة.. فهو لا يأبه لأي كان في تصريحه وجهره بالحب.. دون قواعد أو مقدمات.

ربما هذا الذي جعل علاء مهووس به.. لأنه يفك عنه القيود التي رسمها لنفسه أو التي رسمتها الأعراف والتقاليد.. وفترة ما بعد العشرية السوداء.

***

مرت الأيام والساعات مع أناغيم سريعة.. وأَبطؤُ ما فيها لحظات الفراق.. ثم يأتي الغد وتعود اللحظات لتسرع مجددا بقربها، وعلاء لا زال يكتفي كل يوم بتراتيل الحب الخفية، وكل يوم يحدّث نفسه بأن يجهر لها بالحب.

و ربما منعه شيخ المالوف عن فعل ذلك إذ حكم على الساعات الأكثر قربا بالفناء.. وجعل أناغيم في مجموعة ثانية بعد الانتهاء من الجانب النظري غير

المجموعة التي يدرس فيها علاء، وربما كان ذلك بطلب من أناغيم.

صار علاء بعدها الطالب الأكثر تفوقا والأكثر حضورا.. تسوقه قدماه لهذه المدرسة في وقت درسه حاملا كمنجته الأنثى.. وفي وقت درسها حالما بالأنثى الكمنجة.

صار ظل أناغيم حتى في تلك الشوارع التي لا تصيبها الشمس.. والتي كانت تحاول عبثا التهرب منه بالسير فيها لحرجها الشديد من وقوفه الدائم معها.. وقوفا طويلا وعقيما، فلا هو تكلم ولا كان يليق بها أن تبادر بالكلام، وإن اشتركا في مشاعرهما السيرة.

هي مقتنعة أنه يحبها ولكن تعابير الحب عنده غير عادية، هو لم يصرّح بذلك الحب بكل وضوح، هناك دائما غموض يحيط به، كأن إعلان الحب عنده يشبه إعلان الحرب التي قد يطول الاستعداد لها.. دون أن يبادر إليها أحد.

الوحيد الذي بادر بإعلان الحب لأناغيم هو أيمن.. وإن كانت لا تبادله المشاعر ذاتها، ولكنه استطاع أن يفعلها ككل الذين عاشوا في باريس.. وواصلو دراستهم فيها عندما اشتعلت النار في الجزائر، هم فقط كانوا قادرين على إعلان الحب بطلاقة وبأكثر من لغة،

فالحب عندهم لا يشبه الحرب وليس في مخيلاتهم شيء منها.

علاء كان يصارع ذاته ليعلن الحب ويتغلب على ضعفه.. خوفه وصمته أيضا، وتنفس الصبح القريب دون أن يسمع (واش حوالك يا علاء).. يومها فقط استطاع أن يميّز بين الليل والنهار.. وأن الصباح الذي لا تسمع فيه صوت حبيبك هو جزء من الليل مع تمرد الشمس فيه، ذلك الصباح هو الليل ذاته أو الليل الأكثر عتمة.. فهل من رجوع سيدتي؟

يسأل شيخ المالوف عنها.. أين تلك التي تلبس كذا.. وتأتي من ذاك الاتجاه، تلك التي تقصد في مشيِّها من غير مرح.. بنت أبيها ولم يقل حفيدة جدها، وما قال هي صاحبة السينات الخمس التي "تمشي فوق رمشي".

هو لا يريد أن يقتلها بهدوء ولا أن يعطيها نعشه.. ولا يريد أن ينطق اسمها أمام شيخ المالوف.. كأنه لا يذكُرُهُ وهي لا تعنيه، حتى وهو يموت من داخله كان يكابر في حيائه القاتل، أكثر ما استطاع فعله هو قراءة ترتيل حبها دعوات.. ودعوات في ليالي حالكات يناجي ربه.

و في أوقات أخرى.. وأماكن بعيدة عن أعين الناس وبعيدة عن آذانهم.. يقرأ تراتيل أخرى من المالوف.. وسرا أيضا.

"وانـا بالبـغية تقوى غـرامي
أهلكـني يـا سـابـغ الشـفر
أكمي سري حتى أنا نوجد الخبر
راك انعمت يا الطايع الله يا سود الريامي"

أخبره شيخ المالوف أنها لن تعود.. ومع ذلك واصل علاء تلك الدورة التكوينية على أمل عودتها.. ولكي لا يخسر قرب الكمنجة وإخلاصها.

يريد أن يتودد إليها ويتقرب أكثر، هي وحدها تفهمه دون أن يتكلم، هي وحدها تترك عزَّتها جانبا لأجله وتبتدئ بالكلام دون انتظار المبادرة منه، يكفيها فقط أن يحرِّك يده روحة ومجيئا لتقول له كل شيء.. بل ليَتَحرك كل وجدانها، وهو لا يريد أن يبتعد عن الكمنجة يكفيه وجع بعد حبيب واحد.

ذهبت أناغيم وتوالت أيام غيابها عنه، ما بقي له منها غير تساؤلات دون جواب.. هل وجد ذاته في هذه المدرسة؟ أم وجد غصة الحلق وحرقة الصدر وثلمة

الفؤاد، حذّرته نفسه من هذا.. وفضل التمرد بحثا عن راحة الموت أو العيش دون أسقام.

دخل هذه المدرسة يريد أن لا يبقى عاجزا ومبتدئ أمام كل أنثى.. فازداد عجزا ومن الكمنجة قربا، أليست الكمنجة أنثى؟ إن كان ذلك فقد انتصر، أم أنّها ليست ككل الإناث؟ فهي من غير روح.

لماذا اكتفت أناغيم بالجانب النظري من هذه الدورة؟ ولما لم تجرّب العزف على الآلات؟ يتساءل علاء، هل لتقول له أنه لا علاقة لأصولها بهذا الفن.. ولا علاقة لجدها أيضا به؟

هل يلومها ويلوم عجزها وكبرياءها؟ أم عليه أن يلوم صمته؟ والحب بريء لا يلام.

لماذا تأتي هذه القاتلة متى شاءت؟ وتحزم حقائبها لترحل متى شاءت؟ ودون أن تكلف نفسها عناء توديع ضحيتها.. وعناء تنظيف الأرض التي قتلته عليها، تبا لامرأة مناسبة تأتي في الوقت غير المناسب، وتبا للحب.. فهو لا يناسبه غير جرأة المواجهة والبوح به في اليوم الأول.

و هل يكفي أناغيم عذرا تسجيلها في السنة الثانية جامعي في تخصص آخر غير الفنون.. تريد أن تكون ممرضة تداوي الأسقام، ولكنها لم تنتبه لجروح

حبيبها.. تركته دون وداع.. دون تحضير نفسي مسبق، ربما كُتب لها الفشل في مهنتها قبل البداية.

وهل ضايقها علاء إلى الحد الذي تتوقف فيه عن إكمال تكوينها في العزف؟ وقد علم أنها عادت وأكملت تلك الدورة بعد فترة قصيرة.. وبعد أن غادر هو تلك المدرسة؟

هل يلومها على ذلك؟ وعلى تهربها منه في أكثر من مناسبة؟ أم عليه أن يلوم نفسه؟ وربما اللوم على من أشعل حربا تركت شعبا صامتا خائفا.. وعاجزا عن العزف على عتبات مدرسة الحب.

يواصل علاء تساؤلاته وقد اشتد به الشوق إلى أناغيم.. ويصير هذا الشوق جنونا كلما تراكمت أيام الفراق المتشابهة، كلما مر قرب دارها وأمام كل مكان التقاها فيه، كل تلك الأماكن بالنسبة إليه صارت مقدسة.

يدفعه تواجده بتلك الأماكن بجنونٍ ليقرأ شيئا من تراتيل المالوف بصوت خافت، كأنه يسترجع لحظات معها.. ليقول لها كلمات لا يزال عاجزا عن قولها جهرا.. وعاجزا عن مواجهتها بها.

لأجل ذلك كله اكتفى بقول تلك الكلمات التي صارت مقدسة أيضا.. وخفيّة أيضا، وشجرة فلفل أسود استظلا يوما بظلها صارت تصلح للطواف والعبادة.

مرت سنوات لم يرى فيها أناغيم ولازال يردد تراتيل حبه الخفيّة لها كل يوم، وكل ليلة يستجمع صورتها ويستحضرها بقوة الحب حتى تستحيل قائمة أمامه.. ليُسمع خيالها تلك التراتيل.

و يعجز عن ذلك في أيام العيد.. لا يدري لماذا بالذات يعجز عن ترديد تراتيله تلك في أيام العيد.. هل لأن العيد يوم فرح والفرح عنده لا يكتمل بعيدا عنها؟ أم أنه حين يرى دماء الخرفان في الطرقات تعود به الذاكرة لعقدته النفسية.. وخوفه وصمته الدائمين.. وتختلط عليه مشاعر الفرحة بحمرة الدماء.

لا يتذكر في العيد أناغيم ولا يستحضرها ولا يرتل لها شيئا.. يتذكر فقط ذلك الذي لا يجيد ذبح الخراف في عيد الأضحى لأنها تقاومه بغريزتها.. ولكن في غير العيد يجيد الذبح لأن الضحايا ليسوا خرفانا.. ويخافون من فكرة المواجهة ويستسلمون للموت بسهولة.

في العيد يجب على حامل السكين أن يجعل الأضحية باتجاه القِبلة.. وأن يذبحها لله، والضحية في

غير العيد لا يهم كيف تُقتل.. كيف تُذبح.. فمن يتقربون بها إليه يقبلها مذبوحة في كل الاتجاهات.

و في العيد يجب عليه أن يحدّ شفرته وأن يريح ذبيحته.. وأن يجعل السكين في موضع محدد من رقبتها عند النحر.. فترى بذلك الأضحيةُ السكينَ مرة واحد ثم تتمزق أوردتها بعدها بسرعة.. وينتهي ألمها بالسرعة ذاتها.

و حين يتعامل مع ضحية وليس أضحية فإتقان عمله يفرض عليه أن لا يحد شفرته.. وأن لا يريح ذبيحته.. وأن يريها السكين لأكثر من مرة قبل الذبح.

هكذا فقط ستُذبح أكثر من مرة.. وستموت أكثر من مرة قبل الموت.. وأن يذبحها في غير الموضع المحدد لكي تكون الأوردة آخر شيء يمزق.. فيطول بذلك زمن موت الضحية ويشتد ألمها.

بهذا فقط قد ينتشي القاتل ويُشبع غريزته الأكثر حيوانية.. وقد لا يَشبع من ذلك فينكِّل بالجثة.. فيجعل رأس الضحية وسط رجليها وقطعة نقدية في فمها في إشارة إلى أنها أو أنه تكلم ووشى بالإرهابيين.. وأنه يستحق جزاءه.. وأنه هو المذنب وحده.. وهم البُرَءاءُ جميعا.

و من يفعل فعل الضحية يصيبه الذي أصابها، وكفى بها رسائل خوف وترهيب للأبرياء العزل، ويحسب الإرهابي أنه يجاهد في سبيل الله.. بل ربما يحسن صنعا.

هكذا كانت الأيام في الجزائر في عشرية لا يناسبها لون آخر غير السواد، وهكذا كانت الرسائل الخفية الصامتة التي علّمت شعبا كاملا كيف يصمت.

أحدهم قام برمي غطاء من شرفة بيته على ضحية ملقاة على الأرض نكَّل بها الإرهابيون لتكون عبرة.. فأخفى الغطاء الجثة العبرة.. وكان بعدها صاحب الغطاء هو الضحية الموالية.. في الليلة التالية.. والعبرة لم تجد من يرمي عليها غطاء آخر، فلا أحد يريد أن يكون عبرة أخرى.

مُرَّ بين الجثث وأشلائها ولا تحاول إنقاذ أحدهم في رمقه الأخير.. ولا أن تلقّنه الشهادة.. ولا تقل شيئا عن القاتل والمقتول، مُرَّ كأنك لم ترى شيئا.. لا بأس عليك إن كنت شيطانا أخرسا فالشياطين يطول أعمارهم.

و لا تكثر من المشي في جنائز القتلى.. امشي فقط في جنازة حبيبك فقد يلومك في المنام على حقه الأخير، أما غيره فلن يلومك أحد.

و تعايشَ الشعب مع الدماء والجثث وأَلِفَ القتل.. وما عادت صلواته اليومية خمسة فقط.. بل أضيفت إليها صلاة الجنازة.

ولقّنت الأم الجزائرية في تلك الأيام ابنها الصمت قبل أن تلقّنه الكلمات، لقّنته الميم النافية في اللهجة الجزائرية وشعارها "احفظ الميم يا وليدي تحفظك".

لأنه بصمته فقط يمكن لها أن تراه عريسا ولو بعد حين، أما حين يكون غير قادر على الصمت فهو مشروع ابن ميّت.. أو في أحسن الأحوال مفقود.

انتهت الحرب بعدها وما انتهى التلقين، فالمسؤول يلقّن.. التلفزيون يلقّن.. الراديو يلقّن.. المدرسة تلقّن والمسجد يفعل ذلك أيضا.. وسيدات التلقين هي الأمهات، والوطن يكذب.. يتظاهر بأنه بخير وهو ليس كذلك.

صمت.. صمت.. صمت ونشأ جيل عربي بأكمله لا يتقن اللغة.. لا يجيد الحرف العربي.. لا يعرف كيف يحاور ولا كيف يعبِّر عن حبه.. وحين تكون كلماته الأعجمية القليلة غير مقنعة يرفع صوته مستعينا بالصراخ ليكون أكثر إقناعا.. ولا ينسى أن يشير ببعض الحركات.

توقف القتل وتوقف الموت العشوائي بعدها ولكن الخوف لم يمت ولم يتوقف.. ظل يقتل الناس في صمتهم بصمت ويطارد أحلامهم.

انتهى العيد واستطاع علاء أن يستجمع صورة أناغيم مجددا.. وأن يستحضرها ويرتل أمامها غيابيا كل الذي ألف ترتيله لسنوات طويلة.

وواصل تساؤلاته التي لم يجد لها جوابا أيضا، وكرّر على نفسه مرارا لماذا ذهبت؟ ولما تجنبته أثناء الدورة التكوينية وبعدها؟ وكانت الأحلام أجوبة.. وشيء من الأوهام متنفسا.

***

يرن الهاتف وعلاء لازال يهيّئ الجو لتلك الأحلام الجميلة لتراوده ولتشاركه مضجعه، فيجيب بعد إصرار المتصل.. وبصوت خافت.. ليسمع صوت جاره من الطرف الآخر يطلب إيصاله للمستشفى، وهو رجل أمن يطارده في النهار.. فعلاء في نظره محتال، وفي الليل قد يستنجد أحدهما بالآخر.

لم يسبق لهذا الجار أن ردّ لعلاء طلبا ولا حرّر له من قبل مخالفة، وإن طارده أكثر من مرة، بينهما مودة ومشاعر احترام خاصة.. فعلاء في نظره رجل دين

فهو خرّيج الجامعة الإسلامية.. وهذا الجار في نظر علاء حامي حمى الوطن.

لم يكن أمام علاء إلا أن يجيب طلبه وأن يواصل بذلك الاحتيال ليلا، ربما يجب عليه أن يواصل الاحتيال.. هو يرى الاحتيال رسالة من يؤديها حقها يصير فنانا متمرّسا، الاحتيال علّمه كيف يكون أكثر من رجل مختلف.. مع كل زبون يتقمص شخصية ما.

هو رجل دين أو محب للدين إن كان زبونه إماما، وهو أكثر انضباطا حين يُقّل رجل أمن.. وأكثر انفعالا مع بطولاته المزعومة.

و يجب عليه أن يُظهر سعادته وهو يُقِّلُ عريسا أو صاحب فرح، وأن يُظهر لأهل العروسة بأنه من أهل عريسها، وأنهم يملكون الكثير من السيارات.. ولا حاجة لهم في استئجارها، وسيارات الفرود تناسب ذلك النفاق الحلال.. فلا علامة فيها تظهر أنها للأجرة.. ولا علامة تظهر أن راكبيها فقراء.

وعلى الفرودار أن (يتهول) وهو يسمع المالوف مرغما ومتسترا على الفقراء، ربما الجميع يعرف هذه الحيل.. حتى أهل العروسة يعرفون ذلك وقد اختاروا محتالا كبيرا في السن ليكون وليّها.. ودون علمه المسبق بذلك.. فكل شيء يحضر في اللحظات

الأخيرة، والفتاة استحت والدها مجنون عُذِّب في التسعينات.

وحين ينتهي العرس قد يركب زبون آخر فقد عزيزا.. وعلى المحتال حينها أن يواسيه وأن يظهر تأثره الشديد لذلك.. وهو يستمع إلى آيات من القرآن الكريم.

وقد يشعل سيجارة زبون وهو يوصله إلى إحدى الملاهي.. ويعود مع آخر يطلب منه ماء للوضوء.

وقد يحمل شيخا يحدّثه عن ما فعلت فرنسا العجوز وكيف زرعت الموت.. ودموع الحزن تغالبه، ثم ينزل الشيخ ليجلس إلى جانبه شاب يحلم بالهجرة إلى فرنسا الجنة.. ولو على قوارب الموت.. ودموع فرح تغالبه أيضا كما غالبت الشيخ، وعلى الفرودار أن يسبّ مع الشيخ ويحمد مع الشاب.

على كل حال الزبون ملك والملك يحب الفنانين لهذا يمنحهم أجور زهيدة، ربما نيّته حسنة يريد أن يجعلهم فقراء، الفقراء يدخلون الجنة بعد الموت، ويهاجرون إليها قبل الموت.

فكُلُ هذا الجنون.. كل هذا الرقص المبكي.. كل هذا الالتزام المنحرف وكل هذا التمثيل والفن المفضوح في يوم واحد لا أكثر، والهجرة في يوم آخر.

المشهد العاشر: جنون الفراق الأكبر

اقتباس من النص

((أخرجت أناغيم يدها لتلقي بمنديل أبيض.. وسارع علاء خلف ذلك المنديل الذي طار في الهواء.. عساه يجد رسالة أخيرة أو بقايا قبلة على ورق منديل.. أو ربما رصاصة حب أخيرة.

حين وقع المنديل الأبيض في يده أيقن أنه لم يكن رسالة ولا قبلة ولا رصاصة بل شيئا أحمر من أثر الرصاص، أو ربما هو حمرة شفتيها (السالف) الذي يجب أن تتركه لذكرى حبهما الأبدي، وقد يكون هذا المنديل الطائر وسيلتها في إعلان استسلام حبهما الصامت، وأن الماضي هَزم الحب، والفقر هَزم الحب، والخوف، والصمت هَزماه أيضا)).

عاد متأخرا كعادته.. فتح باب البيت وسار خطوة واحدة إلى الداخل.. وقبل أن يمد يده لإنارة مصباح الرواق وقعت رجله على شيء ما جعله يسرع في إشعال ذلك المصباح.. وبسرعة أكبر مد يده ليلتقط رسالة ملقاة على الأرض.

مزّق غلافها الخارجي بلهفة فهو لم يسبق له أن تلقى رسالة من دون طابع بريدي.. وغلافها لا يحمل عنوان المرسَل إليه.. فهذا يعني أن المرسِل وضعها تحت الباب بيده، هو يريد أن يطمئن إلى أنها وصلت لعلاء.. لذلك لم يعوّل على عمال البريد الذين قد يضيعونها أو قد يوصلونها في الوقت غير المناسب.

أخرج علاء الرسالة وهو يشعر برعشة ما تسري في يده.. وتسارعت نبضات قلبه وهو يرى خط يدها على الورق، التهم تلك الرسالة على عجل دون أن تطرف له عين.. فعيناه لحظتها مشغولتان بالطواف على أحرف تلك الكلمات في خشوع، تسرعان حينا وتبطئان أحيانا أخرى.

هو يريد بنظراته تلك لهذه الرسالة أن يعرف فورا كل الذي تريده منه أناغيم، قرأ الرسالة وأعاد قراءتها مرارا بشغف القراءة الأولى، ليقف بذلك عند كل كلمة كتبتها يتأملها ويستزيد.. ويقرأ الكلمة ويفتش تحت

أحرفها وينقِّب عن كل المعاني التي أرادت من وراء كل كلمة.

توقف كثيرا عند اعتذارها له عن تهرُّبها منه وتوقفها عن إكمال تلك الدورة التدريبية، أخبرته أن أم أيمن كانت تلحقها خفية لمدرسة المالوف.. وقد هددتها مرارا أنها ستوقف دفع النفقة لعائلتها إن هي التقت علاء مجددا.. ولم يكن أمامها إلا التهرب منه ثم التوقف عن إكمال تلك الدورة.

حدّثته عن ماضيها.. عن أصولها.. لم تترك له أي شيء غير واضح ولا أي شيء قابل للتأويل.

قالت أن أيمن لا يعني لها شيئا ولكنها لم تقل أنها تحب علاء.. بل تجنبت الحديث عن مشاعرها اتجاهه، قالت فقط إنها تريد أن تراه غدا أمام بيتها.. وأنها تنتظر الغد بلهفة لأجل ذلك اللقاء وألحت في طلبها، أنهت رسالتها بقولها نلتقي غدا يا علاء.

ربما هي تريد منه أن يحضر لتجهر أمامه بحبها له ولا تريد أن تجعل الحبر يسبق اللسان في الجهر بالحب، أو أن تلك المساحة البيضاء للرسالة لا يمكن أن تستوعب ما يخالجها من مشاعر لذلك تركت الحديث عن الحب للحظات اللقاء المرتقب.

كانت تلك الليلة بالنسبة لعلاء أشبه بالحلم المتعب.. فهو لم يستطع أن ينام ولو للحظة واحدة، ومع ذلك كان مستمتعا تتقلب روحه بين أحلام اليقظة الجميلة والمصطنعة معا، وجمالها في كونها مفبركة بما يكفي لتكون على المقاس.. يرسمها ذهن متعب عابث يتشبث بأي إشارة حب وَقَعَتْ ويعجنها مع كثير من الذكريات.

قضى وقتا طويلا وهو يفكر في الكلمات التي سيقولها لأناغيم.. وبأي طريقة يعلن لها حبه، وهل ينتظر مبادرتها فهي التي دعته لهذا اللقاء.. أم أن عليه أن يبادر هو بذلك لكي لا يضيّع هذه الفرصة وهذا اللقاء، هو يريد أن يقول لها كل شيء حتى لو كانت أناغيم تريد بدعوتها له شيئا آخر غير إعلان الحب، مشكلته أنه كان يشك في قدرته على الجهر بما خفي من مشاعره.

بالكاد بزغ فجر ذلك اليوم بعد ليلة حبلى بالأحلام.. فقام علاء ليرتدي أجمل ما لديه لتلك المناسبة.. رشّ على جسده أكثر من عطر ومكث طويلا أمام المرآة وهو يصفف شعره قبل أن يخرج من البيت وحتى أظافره نالها شيء من ذلك الترتيب.

كل شيء يجب أن يكون مرتبا بدقة لمثل هكذا موعد وللقاء طال انتظاره، كل شيء يجب أن يكون

محضرا سلفا، لباسه.. ساعة يده.. عطره.. مشيته وكلماته.. هو لا يريد أن يترك للمفاجأة شيئا قد يفسد عليه لقاءه بأناغيم.

تساءل وهو يركب سيارته صباح ذلك اليوم ويمسح ما علق على مقصورتها من غبار.. لماذا دعتني أناغيم للقائها؟

هل ستقول أشياء أخرى غير التي قالتها في رسالتها؟ أشياء لا تكفيها المساحة الضيقة لتلك الورقة البيضاء التي دوّنت عليها عباراتها؟ ربما تريد أن تقول له أحبك.. وأحبك بكامل حروفها لا يدركها سواد الحبر ولا يعي كنهها بياض الأوراق، قد تضمه إليها ضمة مجنونة؟ وقد يرى منها شيئا آخر مختلف.

قد لا تقول له أي شيء قبل أن تركب إلى جانبه وتطلب منه أن يمضي بها إلى أي مكان، المهم أن يكونا معا بعيدا عن أيمن وأمه وتمتماتها، بعيدا عن كل المؤمنين والمصلين والمُتَأَلِين أيضا.. وبعيدا عن كل الذين يعرفونهم.. بل بعيدا عن كل الناس.

أفزعه صوت البارود صباح ذلك اليوم.. فكفّ عن ذلك التفكير وعن تلك التساؤلات.. وركن سيارته ليفسح الطريق لموكب العرس الذي توقف قريبا من بيت أناغيم، يظهر أنه عرس لأحد جيرانها، ولا بد

للأعراس من البارود.. وكثيرا ما حوّل البارود الطائش أعراس الجزائريين إلى مآتم.

الأعراس عندنا تشبه الحروب وإن استبدلت الطبول بآلات وبموسيقى صاخبة أكثر إزعاجا..(تتهول) معها في عَبَثِيَّتها صافرات السيارات التي تشبه صياح ديكة استيقظت باكرا متواطئة مع الشيطان لتزعج لا لتوقد أحدا للصلاة.

يستعد (البارديّة) بحشو بنادقهم بما يكفي من البارود لإظهار مكانة ورفعة العريس، لتخرج بعدها النساء في خيلاء واضح مدججات بحلي مستعارة.. يشيّعن الأكثر زينة هذا اليوم.. باتجاه صالة عرس تُظهر الفقير غنيا ليوم واحد.

لم يكن علاء يحب الأعراس ولم يشده إليها أي شيء وقد أخلف أغلب دعوات زواج أقرانه.. والآن يجد نفسه مرغما على حضور جزء من هذا العرس الذي لا يدري من صاحبه.. فقد ركن سيارته قريبا من بيت أناغيم ينتظر قدومها.. لم يكن يملك رقم هاتفها ليستعجلها في النزول كان عليه أن ينتظر فقط.

قالت في رسالتها أنها ستخرج من البيت على الساعة العاشرة صباحا ولم يبقى إلا القليل.

شعر علاء بسعادة خفيّة رغم أنه لا يحب الأعراس.. فالبارود فيها يذكره بأيام الحرب، ربما سِرُّ سعادته تلك أنه استطاع أن يتخيل أناغيم بالفستان الأبيض وهي تُزف إليه، ولكن للمكان الذي هو فيه هيبة أوجست منها نفس علاء خيفة رغم سعادته لحظتها، فهو لم يسبق له أن ركن سيارته أمام بيت أناغيم بل نزل من سيارته ينتظرها، لذلك ارتاب قلبه وشك في شيء خلف اللاشيء.

ها هي البندقية في يد (الباردي) تتكلم بارودا ونارا لتطل العروس خلف دخان متصاعد.. ويلتفت علاء مسحوبا بصوت البارود ومدفوعا بفضوله لتلتقي العيون وتتقاطع النظرات أو أنصافها أو أجزاء منها، فهي لم تنظر إليه بعد فقد "أشارت بطرف العين خِيفَةَ أهلها إشارة محزون ولم تتكلم".

رباه لطفك ليس هكذا يكون الحب، تسمر البصر واضطربت الأنفاس وتفتحت الشفاه وذبلت من غير حراك.. وكلمة تأبى الخروج واسمها يصارع صمتا طويلا.. فأي قدر هذا وأي جنون أن يحضر عرس أناغيم من غير دعوة مسبقة أو بدعوة مفخخة.

يتحامل بعدها علاء على نفسه ويدفع بجسده إلى مركبته ويرتمي على الكرسي مشلولا من غير حراك.. وأناغيم تشيّعه بنظراتها.. لا تريده أن يغادر.

قاسمها علاء النظرة ذاتها.. فهو لا يريدها أن تكون هي، أو يريد أن يتأكد فقد غيّر تبرجُ القَوَاعِدِ شيئا من ملامح وجهها وأطفأت (الدرّاية) بعضا من سواد عينيها.

أخذت تمشي في موكبها بخفة كأصابع عازف كمنجة ماهر.. وكان علاء لحظتها القوس الذي يجب أن يحتك ذهابا ومجيئا بتلك الأوتار اللعينة ليخرج قرع نعليها بكاء وحنينا، ولم تكن أناغيم تحاول إخفاء ذلك القرع فهذا اليوم يوم للبوح الكامل.

تمنى علاء لحظتها لو كانت الكمنجة في يده ليجلسها على حجره كما يفعل أصحاب المالوف.. فيداعب أوتار شعرها في ضمة مجنونة.. يُلصق فيها عنق الكمنجة بعنقه.. فتصدر آهات حب وزفرات من شوق وحنين.

فإن لم يغمى عليه حينها من شدة بوحها.. كتم صوت الأوتار بأصابع اليد الأخرى وترك الوتر الأقل حنينا يواصل الغناء والرقص على جثته.

ها هي ذي أناغيم أمامه ليس يفصل بينه وبينها غير أنفاسه التي حبسها زجاج سيارته.. وصمته الذي حبسه خوفه.. مكسوّة بياضا على بياضها لم يكسره سوى سواد عينيها الواسعتين وحمرة شفتيها الناعمين اللامعتين.

خرجت تلتحف البياض تردد النسوة خلفها أجمل أغاني المالوف.. وشيئا من الأندلسي، مكررات "قوم ترى براعم اللوز" فهل كن يقصدنها بذلك؟

لم يكن علاء يراها برعم لوز واحد بل شجرة لوز غطّتها براعمها التي تفتحت أزهارا بيضاء دفعة واحدة.. ودبرت أمرها ليلا على حين غفلة من الخريف.. فباغتت أزهارها وجه علاء وهي تنفخ فيه عطرها جميعا لحظة واحدة.. كما باغتت خريف مشاعرهما في اللحظة ذاتها.

واصلت سيرها ببطء شديد مكسورة الخاطر.. أو ربما هكذا تبدوا كل العرائس، وانكسار خاطرها لم يخفي خيلاءها الواضح.

سارت كبجعة بيضاء خرجت لتوّها من مسبحها لتغازل خيوط الشمس الذهبية أجنحتها، بريشها الناعم المبلل بماء الزهر.. وتزداد خيلاء مع نظرات تتلقفها وزغاريد تشيعها.

تساءل علاء لحظتها ألهذا لم أكن أحب الزغاريد؟ فهي تعبر عن الحب والفراق معا.. يزّف بها الشهداء كما العرائس، منافقة هذه الزغاريد إذن.. تعلو على جثته ترفسه وتشيّع قلبه إلى مثواه الأخير.. وتزّف أناغيم لحبيب آخر في الوقت ذاته.

و كم عَاتَبَ لحظتها المرأة الأوراسية وعاتب زغاريدها على جثث أولادها، فلماذا تَركتْ أكثر من زغرودة تردد صداها وديان جبال الأوراس.. لأكثر من جرح ولأكثر من موت وزواج؟

و لماذا تظاهرتْ أم الشهيد بالشجاعة ولبستْ رداء الفرح لحظة إعدام ابنها الحبيب؟ لماذا علت زغاريدها؟ ألم تكن ترى الدم الغزير ينزف من جسده؟ أم تراها كانت ترى تخبطه رقصا في عرسه؟ وإن كان عرسا فلن ترده لكِ (الكنة) أيتها الأم.

فلماذا لم تبكي أمام الملأ كما فعلتْ ذلك عند عودتها إلى كوخها الصغير؟ لماذا لم تلطم خديها كما فعلت ذلك خفية؟ فلما التظاهر أمام البوليس؟ ولماذا زغاريد الوجع هذه؟

و قبل أن تنحني أناغيم لتركب السيارة المزينة المخصصة لها.. خصت علاء بنظرة واحدة متعدد المعاني.. لأكثر من تأويل ولأكثر من ألم وحنين.

فهل تصدقت بها عليه إشفاقا كشربة ماء أخيرة وضعتها في فِـيّ محتضر كان لا بد منها لتخرج روحه عند نفاذ الرزق ونفاذ الحب؟ أم غذّت بها عروق قلبه كي لا يموت؟

هل أرادت بها أن تودعه؟ أم أرادت أن تتأكد أن سهامها أصابته؟ وأن سيفها أجهز عليه تماما، هل أرادت أن تقول شيئا ما وأعجزتها المسافة؟ هل كانت تتلذذ لألمه أم كانت تقاسمه إياه؟ وتكابر في إخفاء ألمها وهي تحاول بنظراتها أن تملأ فراغها منه على عجلٍ.

ولكن لماذا دعته لعرسها؟ هل لتقتله أم لتشفى منه.. أم كلاهما معا؟ أم أنها أرادت من علاء أن يقف في وجه الجميع لأجلها.. وأن يأخذها منهم عنوة وإلا فهو لا يستحقها؟

هي دعته لحضور عرسها لتحرّك فيه مشاعر ما.. لتخرجه من صمته عنوة، ليواجه أيمن وأمه لأجلها.. وليعينها بعد ذلك على فقرها وحاجتها لمن يعيل إخوتها، ولكن قد تصمد حواجز الصمت والفقر والخوف الأزلي أمام كل الهزات العنيفة، وأمام صدمة فقدان الحبيب إلى الأبد وكيف لفقير أن يعيل حبيبا فقيرا؟

بقيَتْ تنظر إليه بإلحاح كأنها تريد منه أن يلحقها إلى صالة العرس.. وأن يفسد عرسها بأي طريقة ليكون العرس مأتما كما تتوقع دائما (الشوّافات) والقائمين على الأضرحة، وربما دعته ليلقى مصير ساعد لأنها لا تريد أن تموت لوحدها فقط.

انسحب جسدها الناعم الملمس إلى سيارة العرس شيئا فشيئا.. وتركت علاء ملطخا بحبه، تسللت عيونها لتسرقه للمرة الأخيرة.. بل لم تكن متسللة أبدا.. بل جريئة وأكثر بوحا مما قد عرف عنها من قبل.. دون أن تعير للذي كان يمسك يدها أي اهتمام، بل ربما كانت تستفزه بنظراتها الجريئة لعلاء؟

نظرات جريئة بما يكفي لتشعل في أيمن الغيرة أو النخوة أو أي شيء آخر يدفعه لتركها حرة تعيش حلمها، وبالنظرة ذاتها حاولت أن تُلهب في قلب علاء الرغبة في الوقوف أمام الجميع لأجلها والرغبة في إخراج كمنجته من الصندوق الخلفي لسيارته أيضا.

لتقتل فيه الإمام وتحيي العاشق.. وليدع هو الكتاب المقدس جانبا لبعض الوقت وينفرد بحبيبته من خلال كمنجته.. فالعزف على أوتارهما عزف واحد.

شعر علاء لحظتها أنه في معركة داخلية مع أكثر من رجل يسكنه، معركة لأجل أناغيم وضدها.

لكن لم تكن لأيمن الغيرة التي أرادت ولا لعلاء جرأتها.. فلم يستطع علاء أن يفعل شيئا فقد غلب فيه الراهب العاشق.. والآية النوتة والنوبة.. والقرآن الكمنجة.. والمسجد ديار حبيبته والحرب الحب.

سار الموكب بسرعة مجنونة جنون العروسة التي تحب أن تمشي ببطء، حينها أخرجت أناغيم يدها لتلقي بمنديل أبيض، وسارع علاء خلفه.. ليس خلف الموكب بل خلف ذلك المنديل الذي طار في الهواء.. عساه يجد رسالة أخيرة أو رصاصة حب أخيرة.

حين وقع المنديل الأبيض في يده أيقن أنه لم يكن رصاصة بل شيئا أحمر من أثر الرصاص، أو ربما هو حمرة شفتيها (السالف) الذي يجب أن تتركه لذكرى حبهما الأبدي؟

و قد يكون هو المنديل الذي أعلنت به استسلام حبهما لكل الظروف ولكل العراقيل ولكل الأوهام، وأن الماضي هزم الحب والفقر هزم الحب والخوف والصمت هزماه أيضا.

***

ذكّره ذلك (السالف) بساعد.. وتساءل حينها أين أنت يا ساعد يا صاحب (البغية)؟ وبأي جرأة قلت لنجمة بنت أشراف وبايات قسنطينة ما قلت في بيتها

وفي حضور أهلها.. وأنت تعلم نهايتك.. وربما أيضا نهايتها؟

"وانـا بالبـغـيـة تقوى غـرامـي
أهلكـني يا سابـغ الشـــفر
نجمة يا نجمة ما بقى لك صواب في اللوم عليا
راني غديت لقداك فيا لشنايع والباطل
اتبقـاي بالخـير يـا المتـهـومة بـيا
هذا آخـر وداعنا والـوعد اكمل
كرهوني يا الزهو خاطري ناسك بغضية
الله يـا سـود الـريـامـي"

من أين لك بتلك الجرأة يا ساعد؟ هل لأن نجمة أرسلت لك خصلة من خصلات شعرها مضفورة بحبات الجوهر مع امرأة يهودية دليل لمحبتها؟ بعد أن أعطيتها كل ما تملك يوم البغية، وأناغيم لم تعط علاء غير نظرات مضفورة بنظرات وبادلها بمثلها.. وزادت هي على ذلك ببقايا قبلة على ورق منديل.

ولماذا دعتك يا ساعد نجمة لحفل ختان ابنها وجاءت بك إلى حتفك؟ رغم أن (العرّافة) أكدت لها

أنك ستأتي وسيكون عرس ومأتم، هل لأن الحب قاتل يتوشح رداء البراءة؟

و هل شعرت نجمة بذنبها حين رأت زوجها يُجهز عليك.. بعد أن أخفي حذاؤك لتتخلف وتلتقي بقدرك.. واعتذرت لك عن ذلك بإلقاء نفسها وابنها من إحدى شرفات القصر.

وهل حقا كان أهل نجمة (بُغضيه) بقتلهم لك يا ساعد؟ أم أن الحب يجب عليه أن يخرس حين يتكلم الشرف؟

سارع علاء إلى مركبه ليلحق الموكب وليفسد على أناغيم عرسها كما تمنت، بعد أن شعر بحماسة ما حين تذكر ساعد وجرأته.. اقترب أكثر وأكثر فإذا به يرى البنادق تطل من نوافذ سيارات الموكب، تختلف في طولها وقصرها بين (الفوشيات والمحشوشات) كتلك التي كانت في أيدي الإرهابيين ليلة موت أمه.

فهل ستموت اليوم أيضا أمي؟ وهل ستموت اليوم امرأة فيها شيء من عطر أمي؟ يتساءل علاء وقد دبّ الخوف إلى قلبه، وهل سَيَفِرُّ من هذه المواجهة التي لم يكن لينجو منها إطلاقا؟ وقد جرّب ساعد المواجهة من قبل فمات.

والجميع يحاصر أناغيم في مركبها ويزفها لحبيب لا تحبه.

فكر علاء في أن يتصل بأخيه حمزة ليعينه على إفساد عرس أناغيم ويجهر لها بالحب.. ولكنه تذكر أن حمزة لم يعد يغادر الثكنة إلا نادرا، هو مشغول بحب خفي آخر أكبر من حبه لبنت إرهابي وينتظر الوقت المناسب ليجهر به.

حين وصل الموكب إلى صالة العرس ورأت أناغيم أن علاء لحق بها أشفقت لحالهما وذرفت عيونها حمما بدلا عن علاء، فهي تعرف أي نار تحرقه.. وتعلم أن رجلا فيه كان دائما يقتل الآخر.

بكت بدلا عن علاء فلن يلومها أحد على البكاء.. فكل العرائس يبكين يوم زفافهن، بكت على والدها وعلى رجل كانت ترى فيه شيئا من والدها.

بكت.. ودمعة منها تدفع بها خطوتين إلى الأمام مرغمة.. ودمعة أخرى تسحبها خطوة إلى الخلف، كأنها تتهادى أو تتمايل لثقل الحب الذي تحمله خفية.

ثم أخذت تتخبط في بكائها رقصا عنيفا (تتهول) وتعزف بخيلائها نوبات مالوف بكل مقاماتها نيابة عن علاء.. هو الذي أعجزه الخوف عن الجهر بالعزف ولا كانت له الجرأة ليعلن الحب.

و دون كلفة عزفت أناغيم وهي تكابر في حزنها.. وعزف جسدها الذي كان يحفظ النوبات جميعا.. "تتغنى كأنها لا تغني من سكون الأوصال وهي تُجيدُ".

فمن قال أن النوبات تُنقل شفهيا وليس جسديا.. ومن قال أن النوبة الثالثة عشر إلى النوبة الرابع والعشرين اندثرت.. ها هي ذي أناغيم تعزفها جميعا بجسدها وبكل طبوع المالوف.. من (عيساوى) إلى (الفقيرات)، (البنوتات) و(الوصفان) كذلك.

تُغني ويتغنى جسدها بالحب والفراق، على السليقة خُلق جسدها فنانا ولم تكن نوباتها تُشعر أحدا بالضجر فقد كانت خفيفة تنتقل بين المقامات الخمس لكل نوبة برشاقة يهودية.

فكانت تعزف على أكثر من آلة وعلى أكثر من إيقاع وعلى أكثر من وجع، كانت لوحدها جوقة كاملة من ثلاثين فنانا وآلة.. تعزف وتغني وترقص (زندالي) بثلاث (محارم)، اثنتان في يديها تلوح بأحدهما بكل غنج ودلال.. فقد ألقت بالثاني لعلاء من نافذة مركبتها.. والثالث يتوسط خصرها، كأن أستاذها ريمون ليريس وأنه علّمها غيبا قبل مَقتله.

ترقص كأنها تتخبط أو تموت خفية.. وكان هو أيضا يموت سرا ويستمتع بعزفها المنفرد في رمق

حبهما الأخير، دون أن يشاركها العزف ولا كان يمكن له أن يقترب منها ليشاركها الرقص.. وقد أحاط بها الباردية من كل جانب.

و لم تتوقف أناغيم عن العزف والغناء والرقص إلا على النوبة الرابعة والعشرين، نوبة البياتي من مقال الشجن والحنين وبامتياز تؤديها، ربما لذلك غادرت تلك الدورة التكوينية دون أن تكملها؟ فلم تكن يوما في حاجة لتتعلم العزف والرقص فتلك صنعتها.

شاركتها رقصها ذلك أرواح عديدة حين تخلف علاء فقد كان ساعد ونجمة حاضرين.. وروميو وجليات كذلك.. ولبنى أيضا كانت حاضرة، وكيف للبنى أن لا تحضر؟ فقد جاءت كل لبنى تراقص قيسها في مثل هذا اليوم المجنون حتى منتصف الليلة التي لم يكن لها لتنتهي أبدا.

***

الشيء الوحيد الذي استطاع علاء فعله هو العودة إلى البيت خائبا.. يتحامل على نفسه في ليلة لم تكن ليلته، شعر برغبة ملحة حين وصل إلى البيت في أن يستحم بالماء البارد الذي لا تحتاج معه لحبيب يدلك ظهرك، ولعله يجد في الماء البارد شيئا من الشفاء أو يبرد بالماء حرقته.

تذكر والماء ينساب على جسده حديثا دار بينهما من قبل، سألته يومها ما سر الخاتم في بنصرك؟ أليس هذا تشبه بمن هم على غير ملّتنا؟ كأنها وهي تسأله تريد أن تعرف حكما عاطفيا في حكم شرعي.

يومها حدّثها عما لم ترد أن تعرفه.. كأنه كان ينقصها درس في العقيدة، قالت عند انتهائه من كلامه.. نلتقي غدا، وكانت تعني أتمنى أن يسرع الغد لنلتقي، واكتفى يومها بالقول إن شاء الله.. وبكثرة الدعاء في أيامَ فراقٍ أخرى.

لا يَفعل الدعاء الفِعلَ دون الفِعلِ، لا تواكل في الحب فحتى الحب يحتاج شجاعة وسببية، وليس شُجاعا من تخطب له أمه ومن تزوجه أمه ومن تختار له أمه حبيبته.

رفع علاء رأسه إلى المرآة بعد أن جفّف شعره ولبس ثيابه.. وإذا بخيال امرأة فائقة الجمال تغطي المرآة كاملة، التفت إلى الخلف فزعا فلم يجد شيئا، عاود النظر إلى المرآة فابتسمت له وهي تقول بصوت خافت لِتُطمئنه:

-لا تخف الليلة هي ليلتك يا علاء.

سكت برهة يلتقط أنفاسه فقد أفزعه حضورها.. وذكّره صوتها بصوت الجنية كاهنة.. وأراد أن يسمع صوتها مرة أخرى ليتأكد إن كانت هي فسألها:

- ماذا تقصدين بكلامك؟

فابتسمت له ثانية وهي تقول:

- جئت لأفك عنا سحر الحب وليس عنك فقط، لا يجب أن تبقى عقدة الجهر به ملاصقة لنا إلى الأبد.

فهم علاء من كلامها هذا أنها تخفي حبها له كما أخفى هو حبه لأناغيم، وربما تريد هذه الجنية أن تجهر به الآن.. فكلامها هذا شبيه بلغة الحب الصامتة بينه وبين أناغيم.

كاهنة تريد أن تفك عقدة الجهر بالحب عنها وعن علاء.. ولكنه لم يكن يعرف أن أمنيتها الزواج منه وسبيلها إلى ذلك هو إرغامه على هذا الزواج، كما تمنى هو أن يفسد عرس أناغيم ليرغم أيمن على تركها، لكنه لم يملك الجرأة اللازمة لجعل أمنيته تلك واقعا.. لا يدري هل كان سيكون ذلك الواقع مرا أو حلوا.

و لم يكن يخطر ببال علاء أن كاهنة تريد أن تعتذر له أيضا.. عن حراستها لحجب الحب وتمائمه التي

وضعتها أم أيمن له ولأناغيم.. لكي لا يحب أحدهما الآخر، ولكي لا يدوم ذلك الحب إن وقع.

بذلت تلك الجنية ما في وسعها لإبعاد علاء عن أناغيم وفي جعل حبهما مستحيلا.. لتقع هي في حبه وفي حبٍ أكثر استحالة، وانقلب جزء من ذلك السحر الذي كانت تحرسه عليها.

فجاءت لتُقنع علاء بالزواج منها أو لترغمه على ذلك إن لم يقتنع بطلبها.. ولتسد فراغا تركته أناغيم أو ربما لتكون تعويضا عنها.. فاختارت هذه الليلة بالذات.. ليلة الخسران وليلة الوجع الأكبر لتستثمر في ضعف علاء وفي شوقه لأناغيم.

قرأت شيئا من التوراة لتبيّن له أن زواجهما يمكن أن يقع وأنه ليس مستحيلا و"أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات، فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا" لم يقتنع كثيرا بكلامها وإن استمع إليها فاستعانت بآيات من القرآن ليكون كلامها أكثر إقناعا ورددت مرارا إحدى تلك الآيات:

-"لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ ولا جَانٌّ"

أظهر علاء حين سمعها تتلوا شيئا من القرآن قليلا من الاهتمام.. وسألها ليس لتجيبه ولكن ليعجزها فقال:

- كيف لهذا الزواج أن يتم وطبيعتنا مختلفة؟.. ففي النار خفة وفي الطينة كثافة فيستحيل التزاوج وإنجاب الولد، وإذا حملتي مني هل تبقين على لطافتك وخفتك فلا تُرين؟ والحمل على كثافته يُرى.. والولد يحمل من صفات والده.

فردت عليه قائلة:

- رغم أن أصل الإنس طين والجن نار إلا أن كلاهما تحول عن صورته الخلقية الأولى، وقد نُقل عن نبيكم أنه أمسك من هم من جنسنا.. ونُقل عنه حينها قوله "فأخذته فخنقته حتى وجدت برد ريقه على يدي" فالجن لم يبقوا على عنصريتهم النارية.. بل استحالوا عنها كما استحال بنو آدم عن عنصرهم الترابي.

نظر إليها مرة أخرى وهمّ بالخروج من الحمام.. فكلامها بعيد عن مجال إدراكه ولم يكن مهتما لمواصلة الحديث معها ولكنه قال قبل أن يخرج:

- لو افترضنا أنه يمكن لزواجنا أن يتم يا كاهنة فإن ذلك لا يجوز شرعا فالله تعالى يقول: "و الله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً" أي من جنسكم ونوعكم وعلى خلقكم.

فردت عليه فورا لكي لا تدعه يخرج ولتستبقيه بالكلمات ما استطاعت، فهي تحتاج وقتا إضافيا لإقناعه بالزواج منها فقالت:

- إن في الأمر سعة يا علاء، فالإمام مالك إمام مذهبكم لا يرى في هذا الزواج بأسا في الدين إلا أنه كره فقط أن توجد امرأة حامل فيقال لها من والده؟ فتقول من الجن.. فيكثر الفساد والزنا، فزواج الإنسية من الجني حرام، وزواج الإنسي من الجنية حلال حسبه، أي أنه يجوز لك يا علاء أن تتزوجني وما الضرر في ذلك؟

- لا أدري يا كاهنة.. ولكن هل ستحصل لنا السكينة والطمأنينة المقصودة من الزواج؟ وهل يمكنني إن تم الزواج أن أتأكد من أن التي تخالطني هي أنت وليست جنية أخرى؟ ثم أليس من حق الزوج أن يغار على زوجته فيرقب تصرفاتها، وأنا أراك فقط حين تريدين أنت ذلك.. على الهيئة التي تردين أيضا وغالبا ما أراك خيالات أو ظل امرأة فقط.

ولم يتوقف علاء عند تلك التساؤلات وعند تلك الحجج، فهو يريد أن ينهي هذا الأمر بالرفض القاطع فقال ساخرا:

- لا أدري أآكل طعامك أم تأكلين طعامي، ومن ينفق على من؟ ومن يصلح بيننا إن اختلفنا؟ إنسي أم جني؟

خرج علاء بعدها من الحمام غاضبا.. تركها لا يريد أن يواصل الحديث معها ليجدها أمامه في ممر البيت.. وقد استبدلت الكلمة بالحركة.. أمام عجز الكلمة عن إيصالها لمبتغاها.

بدأ جسدها بالإقناع والإيقاع معا.. وهي تتمثل في صورة أكثر من امرأة إنسية بكامل تفاصيلها.. وتنتقل من صورة إلى أخرى وبالجسد ذاته.. كمن تقلب صفحات كتاب للجمال من غير عناء ولا تكلف.

ذُهل علاء من روعة الجمال الذي رآه ومن تشكيلة النساء اللائي كنّ أمامه في جسد امرأة واحدة.

أخفى اندهاشه لعلّ كاهنة تتوقف عن إغرائها له.. وليجعلها تخسر المواجهة ولتتوقف عن قراءتها العنيفة لزابورها ولتلمود جمالها، فقد خشي على نفسه رِدّة في الحب، رِدّة واحدة عن أكثر من معتقد.

ربما فقد السيطرة على بصره في حضرتها، وقبل ذلك سمعه.. وانتهكت بعدها لسانه وقدرته على النطق أيضا، فقام يعلن استسلامه أمامها قائلا:

- توقفي أرجوك سيدتي.

لكن كاهنة لم تتوقف فهي لم تصل بعد لمبتغاها ولا يزال لديها الكثير لتفعله بعد أن نفذت كلماتها.. حزمت أمرها وانتهى، والليلة هي ليلة علاء.. لا تريد أن يستمر حبها له خفية، هي تريد أن تجهر بحبها له وبكل عنف.

لحظتها تجسدت أمامه في صورة أناغيم بالجمال العنيف ذاته، ترتدي نفس الفستان الأبيض الذي ارتدته أناغيم صباح ذلك اليوم، وترقص رقصها.. وتغني غناءها.. وبتهيؤ وإغراء أكبر.. وبخصلات شعر أكثر تمردا وأقل تمنعا.. وبالمكر والوثوق نفسه.. وبحياء وحمرة أقل على الوجنتين وزيادة جرأة وحسن تجمل.

توقف علاء أمامها مذهولا وقد استباحت حواسه كلها لا يدري ماذا يصنع، هل يكتفي بالنظر والاستماع إليها؟ أم يمسك يديها لكي لا تضيع منه؟ أم أن عليه أن يفعل شيئا آخر؟ وقد شعر في تلك اللحظة بالذات أن أحدهم مد يده ليرفع (الدرّاية) عن وجه أناغيم.

تلعثم لسانه وهو ينطق حروف اسمها.. ولم يجد غير الارتماء في أحضانها وفي أحضان تشكيلة النساء والأنوثة تلك.

ارتمى إليها وربما سبقته هي إلى ذلك.. وكمُلت حروف قصيدة حب مبعثرة عجز لسانه عن البوح بها،

عبثا حاول أن يستوقف القصيدة والجميلة معا، عبثا حاول ذلك أثناء القرب ليتساءل فقط، هل هذا الارتماء قرب من أناغيم أم بعد عنها؟

المشهد الأخير: مجانينٌ يصرخون عزفا وحبا ولكن بعد الصلاة

اقتباس من النص

((و جاءت الجمعة مسرعة تتهادى.. حبلى تريد أن تضع أكثر من مولود أو تحيي كل الأموات، تشبه هذه الجمعة الجمعة التي تقوم فيها ذات يوم القيامة، حتى قسما استعادت روحها ومعانيها المقدسة في النفوس في ذلك اليوم، ولم يعد أحد يتهكم أو يسخر حين يتحدث عن تقسيم السُرّاق لثروات البلد ويختزلها ضاحكا بقوله (قسما).

ورغم كل ذلك أفلت علاء يد أناغيم للمرة الأخيرة بعد أن صرخ بما يكفي حبا، فقد أيقن أنه يمكن أن تسترد وطننا متى شئت فللوطن أكثر من عرس، ولا يمكن أن تسترد حبيبا لم تقاتل لأجله يوم عرسه الوحيد وتركته يرقص حبا لوحده)).

لم يعد علاء يخرج من البيت إلا لفترات قليلة من النهار لمزاولة عمله كمحتال.. دون أن يكلِّم أحدا أو يجيب سائلا، وقبل أن يركن سيارته في إحدى محطات الفرود يقدِّم مئة دينار لرئيس تلك المحطة مسبقا.. ولا ينتظر قدومه عليه لاستلام تلك القطعة النقدية فهو لا يريد أن يكلِّمه.

الوحيد الذي كان علاء يتحدث إليه مرغما هو الزبون.. ويكتفي بسؤاله أين أوصلك سيدي؟ ثم يسكت بعدها.

يوصل زبونا أو زبونين ثم يشتري بعض الأغراض ويعود إلى البيت قبل صلاة الظهر، لم يعد يحضر صلاة الجماعة إلا نادرا.. ولم يعد يخرج من البيت في الليل رغم استغاثة الجيران به مرارا ليوصل مرضاهم إلى المستشفى في تلك الأوقات المتأخرة.

حاول حمزة أن يزوره مرات متتالية وأن يترك انشغالاته جانبا لبعض الوقت.. بعد أن سمع أن طباع أخيه تغيرّت وأنه أصبح انطوائيا وتصرفاته تبعث على الحيرة.. وأن شيئا ما غيّر حياته جذريا.

لم يكن حمزة يعلم أن خسارة علاء لامرأة أحبها هو سبب كل الذي جرى له، لو علم ذلك لاستطاع أن يواسيه وهو الذي أضاع حبيبة أخرى للسبب ذاته.

حين وقف حمزة أمام باب البيت في زيارته الأولى لعلاء بعد كل الذي وصله عنه من أخبار، سمع صوت علاء يُحدّث أحدهم، حاول أن يتنصت أكثر.. ففهم أن أخاه يكلم امرأة.. وحين فتح الباب لم يجد حمزة أي امرأة في البيت، وجد فقط كمنجة على يمين علاء ملقاة على سريره.. وعن شماله مكان شاغر، وروائح تنبعث من البيت كله لم يكن حمزة قد شمّها من قبل.. روائح ليست طيبة ولا خبيثة أيضا.

أراد حمزة أن يجلس في ذلك المكان الشاغر ليكون قريبا من علاء أثناء الحديث إليه.. وقد أصابه شيء من الدهشة من منظر تلك الآلة الموسيقية الملقاة إلى جانب أخيه وهو يعرف درجة التزامه وابتعاده عن هذه الآلات.. فهو خرّيج الجامعة الإسلامية.

وكملت دهشة حمزة حين منعه علاء من الجلوس في ذلك المكان الشاغر بحجة أنه لشخص آخر دون أن يحدد من يكون هذا الشخص، دون أن يقول هو مكان زوجته كاهنة.

لم يرد حمزة أن يواجه أخاه بصرامته المعهودة.. لا مجال ليضربه ولا ليصرخ في وجهه.. وهو يكاد يجزم أن علاء أصيب بالجنون الذي حذّره من الوقوع فيه مرارا إن استمر في عزلته وفي صمته المطبق.. كما

أصيبت أختيه من قبل بالجنون حزنا على فراق أمهم، بعد أن تمرغا على صدرها وتلطخا بدمائها الغزيرة في ليلة مشؤومة.

و لكن لم يمكن باستطاعة حمزة أن يقول لعلاء أنه مجنون.. وأن عليه أن يعالج في إحدى المصحات المختصة.. فهو يعلم أن علاء لن يقبل ذلك وقد تسوء حالته أكثر إن انتشر الخبر بين الجيران.

قرر حمزة أن يكتم الأمر حياء وإشفاقا.. وقام يسأل علاء وقد جلس بعيدا عنه كما أراد:

- علاء هل تحتاج شيئا؟ هل تريد شيئا يا علاء؟

نظر علاء إلى أخيه ثم حدّق في ذلك المكان الشاغر طويلا.. وابتسم ابتسامة عريضة كأنه كان يقول لأكثر من شخص أنه لا يحتاج شيئا.. وبدت أمارات الارتياح في وجهه فهو يعيش حلمه مع أناغيم.. أو يعيش مع وهم المرأة التي أحبها وهذا يكفيه.

هو لا يكلِّم أي شخص غيرها.. لا يضحك إلا معها.. يقضي أغلب الأوقات برفقتها ولا تؤنسه سواها.

الشيء الذي لم يستطع حمزة أن يستوعبه.. أن كلام علاء على قلَّته كان يدل على أنه لا يزال يفكر بطريقة سويّة، يتجاوب مع أحاديثه وكل تصرفاته كانت

عادية.. باستثناء ابتساماته التي لم تكن توافق حديثهما أحيانا والتفاتاته يمينا وشمالا أحيانا أخرى.

ظل علاء على تلك الحالة لأكثر من سنتين.. وحمزة يزوره بين الحين والآخر يحاول جاهدا إخراجه من صمته وعزلته وانطوائه على نفسه.. وحين ضاق صدر حمزة من عدم استجابة أخيه نعته بالمجنون ليستفزه بذلك فرد عليه قائلا:

- ليس المجنون هو الذي يترك حبيبا بحجم وطن، وإنما المجنون من يعدم وسيلة حب أمام وطنٍ لا يقاس بأي حبيب.. لستُ مجنونا يا حمزة صدقني.. لستُ مجنونا.

سكت حمزة برهة يفكر في ما قال علاء وأي المعاني التي يريد أن يوصلها من وراء قوله.. فكلماته أصبحت كالألغاز التي تحتاج إلى الكثير من التفكير، ليقول حمزة بعدها وهو يواصل استفزازه لأخيه:

- إن لم تكن مجنونا يا علاء فمن هذه التي تتحدث إليها ولا يراها سواك؟

لم يرد علاء أن يجيبه واكتفى بنصف نظرة لأخيه.. ثم ابتسم وهو ينظر لطيف حبيبته التي اختبأت في إحدى أركان البيت والتحمت بجدرانه.

لم يستطع حمزة أن يتحمل ابتسامة أخيه لإحدى جنبات البيت الخاوية وشعر بحزن شديد لأجله، سيضيع إن بقي على هذا الحال كما ضاعت أختيهما من قبل، وقد لا ينفع معه غير صدمة قوية كالتي تسببت في حالته هذه، ولكن حمزة لم يكن يدري ما الذي حصل له ليعرف الصدمة المضادة التي تناسب حالته هذه، اكتفى حينها بالقول ودون تلعثم ولا مقدمات:

- علاء إن كنت تحب امرأة أخرج وواجهها بالأمر وواجه الجميع لأجلها.

و كان حمزة يعتقد أن الحديث عن حب امرأةٍ.. وبكل جرأة أمام أخيه للمرة الأولى.. قد يكون كاف لمعرفة سبب الحالة التي وصل إليها انطلاقا من ردت فعله، إن لم يكن الحديث عن الحب أمامه كاف لإخراجه من وضعه المعقد.

أو أن حمزة شعر لحظتها برغبة ملحة في إكمال حديث دار بينهما قبل سنوات، قال فيه حمزة يومها كل شيء.. واستعان بكل الكلمات.. وغلبه الحياء يومها فاستعار للحب كلمة أخرى تشبهها دون أن تكون هي ولا من نفس تركيبة أحرفها.

فرد علاء بابتسامة دون أن يتكلم ودون أن تُؤثر فيه تلك الكلمة.. وربما أثّرت فيه غير أنه بدا متماسكا وهو يسمعها من أخيه للمرة الأولى ليقول بعدها:

- سأفعل ذلك يا حمزة حين تسبقني أنت إلى تلك المرأة.. وحين تواجه الوطن بحبك له دون خوف أيضا.

غادر بعدها حمزة دون أن يضيف أي كلمة، وهو منبهر بقدرة أخيه على استيعاب كلامه وقدرته على الرد.. ومستاء منه في الوقت ذاته وهو يسمعه يكلِّم امرأة لا وجود لها إلا في مخيلته، وقد قَلَّتْ أحاديث علاء مع تلك المرأة الخفية حين عاد يوما إلى البيت ليجد رسالة تحت باب البيت.

ذكّرته تلك الرسالة برسالة تلقاها من أناغيم، لكن هذه الرسالة تختلف عنها.. فعليها طابع بريدي واسمه مدوّن عليها.. ولكن شيء ما كان يقول أنها يمكن أن تكون لأناغيم.

لذلك وضعها علاء في ذلك المكان الشاغر من سريره.. وأصبح يكلِّم تلك الرسالة المغلقة دون أن يفتحها، يخشى أن تكون مفخخة كرسالة أناغيم التي أرغمته بها على حضور عرسها.

و رغم ذلك هو لم يستطع أن يتخلص منها فقد كان يستعين بحضورها ليواصل الحلم، ولا يريد أن يفتحها فقد يجد فيها شيئا لا يوافق هواه.. هو يريد أن يتركها مغلقة قابلة للتأويل.. كل يوم يحلم أنه فتحها ووجد فيها كلمات أناغيم مدوّنة على تلك المساحة البيضاء.

في اليوم الأول يجد كلمات حب جميلة.. وفي اليوم الموالي يجد كلمات أحلى حين تفتحها أحلامه أيضا.. وبعد أن يعيد الحبرُ تشكيل أحرف الحب من جديد.

لم يكن يرى تلك الرسالة رسالة واحدة.. بل كان يراها آلاف الرسائل، وكل يوم تصير رسالة مختلفة تحمل كلمات مختلفة.. لأجل ذلك كله لم يفتحها، فمهما حملت هذه الرسالة من مشاعر فهي لا يمكنها أن تستوعب الأحلام برحابتها، وربما تركها مغلقة لأنه لم تعد له الجرأة ليواجه أحرف الكلمات.

لم يفتحها إلا بعد أيام عديدة حين اتصل به حمزة يسأله بإلحاح هل من جديد في البيت؟ وشك حينها علاء أن هذه الرسالة قد تكون من قبل أخيه وليست لأناغيم.

مد يده يومها ليفتحها وقد أقسم على نفسه أن يعيد إغلاقها إن وجد أن المرسل هي أناغيم، سيعيد إغلاقها

ليتركها ككنز لا يريد أن يستنفذه.. أو يستنفذ المشاعر التي بثّتها أناغيم مع خط يدها، ووسط حروف كلماتها.

فتحها ببطء وهو يشمها لا يريد للنسمات أن تسبقه وأن تسرق عطر أناغيم.. أو أي شيء من عرق يدها على تلك الورقة.

لكنه لم يجد لأناغيم أي أثر في تلك الرسالة، أناغيم لم تعد شيئا ملموسا.. لا أثر لها إلا في ذهنه ولا مكان لها إلا وسط أحلامه الجميلة، هي تسكن في أروِقة الماضي وفي المحطة الأولى التي لن يعود إليها القطار.

هذه رسالة من مسؤول يوافق فيها على طلب سابق لعلاء بأن يكون إماما خطيبا لأحد مساجد المدينة، وربما استجاب هذا المسؤول بعد وساطة أخيه الذي يريده أن يخرج وأن يواجه الناس جميعا.. وأن يكلمهم جميعا.. لعل الكلمات تداوي مرضا تسبب فيه الصمت.

***

شعر علاء بالحزن إذ لم تكن تلك الرسالة من أناغيم كما تمناها ليواصل الحلم مع الورق، كان يريد من ذلك الحبر أن يمده بمزيد من الأمل.. وأن ينفخ فيه مزيدا من زيف السعادة.. لكن الحبر لم يرد له أن يعيش يوما آخر على أوهام الماضي.. فأخذ يزحزح

الحزن عنه ويدفع بشعور غريب إلى قلبه، ربما منبت ذلك الشعور الغريب هو رغبته في تحقيق أمنية والده الأخيرة.. في أن يراه إماما خطيبا ولو متطوعا.

سيعمل دون راتب وسيضطر لمواصلة العمل كمحتال لكسب قوته، لكن مقام الإمامة كان يشعره بالفخر.. وبسعادة تختلف عن تلك التي يجدها من أناغيم، ربما لأنه سيحقق ذاته وأمنية من أمنيات والده ولو بنوع من التناقض لأنه سيواصل عمله القديم.

و قد لا يشعر بذلك التناقض ما دام هذا المسجد يقع في المدينة القديمة ويبعد عن مقر سكناه، وربما لن ينتبه أحد لهذا الازدواج الفاضح في المهنتين، والمسجد الذي سيلقي فيه خُطبه من أصغر مساجد المدينة القديمة ولا يرتاده إلا القليل من المصلين فقد تم ترحيل أغلب سكان الأحياء المجاورة للجامع لخضر..و قد تكون الإدارة محقة في الاعتماد على الأئمة المبتدئين للتدريس في هذا الجامع الذي لا يملأ أرجاءه غير عبق التاريخ.

تساءل علاء هل سيكون الوقوف على المنبر سهلا؟ هل ستكون سلالمه سهلة الارتقاء؟ هل سيواجه الجميع حين يرتقي تلك السلالم دون خوف؟ وقد واجههم جميعا من المحراب قبل ذلك وبخوف مضمر،

فالصلوات الخمس تفرض عليه أن يستقبل القبلة وليس المصلين كما هو الحال عند إلقاء خطبة الجمعة، فهل الإقبال عليهم من المنبر كالإدبار عنهم في المحراب؟

أيام قليلة تفصله عن أولى خطبه في هذا الجامع.. وكلما تذكر علاء اسم هذا الصرح وكلما تردد صدى حروفه داخله يشعر بنوع مختلف من الخوف الخفي لم يكن يشعر به من قبل، ربما هو الخوف من تاريخ هذا الجامع الذي تعاقب عليه الكثير من العلماء منذ بدايات الخلافة العثمانية، وكيف لا يخاف وهو سيقف على منبر وقف عليه ابن باديس ذات يوم.

عزاؤه في مواجهته لذلك الخوف أن ابن باديس علّم أمّةً كيف تتغلب على الخوف من منبره ذاك، وحارب الخرافات التي آمن بها شعب بأكمله ذات يوم.. وصدّق الأميّون أن فرنسا لا تهزم وعملاؤها باقون.

و رغم ذلك لم يكن علاء متأكدا بأنه يمكن أن يُلقي أول خطبه من على منبر هذا الجامع وهو يعزف خفية بين الحين والآخر على آلة موسيقية، وإن كان واد الرمال يحفظ سره.. ولكن مدرسة المالوف التي تعلّم فيها العزف قد لا تحفظ ذلك السر.

ماذا سيقول للناس أو للمصلين إن عرفوا وَلَعَهُ بالكمنجة أو رأوه يحملها على ظهره.. أو شاهدوها

مخبّأة ومختبئة في الصندوق الخلفي لسيارته؟ هل سيقول لهم أن ابن باديس أيضا كان يستمع للمالوف؟ وربما سمع المالوف من غناء الشيخ ريمون ليريس؟ وأن سنده المتصل في ذلك كلام أخ ابن باديس الأصغر.

وهل يليق هذا الكلام؟ وهل يليق أن يكون الإمام عازفا وله حبيبتين أيضا؟ قد يلتقيهما بين الحين والآخر وسرا أيضا.. إحداهما من الإنس والأخرى جنية.

ما الذي سيحدّثهم عنه إن استطاع الوقوف على ذلك المنبر؟ وإن استطاع أن يرتقي سلالمه؟ ذلك هو السؤال الذي لم يستطع علاء أن يجيب عنه والأيام تتلاشى.

الجمعة تقترب مسرعة تتهادى.. تبدو هذه الجمعة حبلى وتريد أن تضع أكثر من مولود.. أو تحيي كل الأموات، تشبه هذه الجمعة الجمعة التي تقوم فيها ذات يوم القيامة.. فلا نظير لها في الرعب الممزوج بالسعادة، ذلك هو الشعور الذي يراود المؤمنين يومها.. وهو نفس الشعور الذي كان يحسه علاء كلما اقتربت تلك الجمعة أكثر.

هل سيُحدّثهم عن الحب الذي يُراد منه البناء ويكون منه الولد؟ أم عن المواعدة التي تسمى أيضا حبا عند

بعضهم؟ وهي لا تعدو أن تكون بِضعة إثمٍ من غير صدقة.

هل سيسرد لهم شيئا من السِيَر؟ ويرتل أمامهم قصيدة كعب بن زهير بن أبي سُلْمى.. التي رتّلها كعب أمام النبي وفي مسجده وبُعيدَ صلاة الفجر، فهل يفعل ذلك علاء ويجهر بالقول؟:

"وانا بالبغية تقوى غرامي اهلكني يا سابغ لشفر"

أم يقول:

"بانت سعاد فقلبي اليوم مَتْبُول

مُتيَّم إثرها لم يفد مكبول"

ألا يخشى لحظتها أن ينزل دمعه ويفتضح أمره؟ وهل سيواصل في وصفها كما وصفها كعب فيقول هيفاء، عجزاء، مكحولة العينين، ذات صوت أغن ومعتدلة القوام كذلك.. وقد يخطئ وتتشابه عليه الأسماء ويخلط بين أناغيم ولبنى وسعاد التي بانت.. فيذكر لهم اسم حبيبته من على منبر ابن باديس.

وهل سيعجب الناس بمثل هذه المقالة ويُلبسونه برنوس (الرجّال).. كما أُعجب النبي بقصيدة كعب فألبسه بردته؟

أم أنه لن يحدّثهم عن الحب.. فهو يخاف أن يزلَّ به اللسان فيقول بإمكانية الزواج من الجنيات إن استحال ذلك مع الإنسيات.

وقد يعجب المصلون بمقالته ويكتمون ذلك ويظهرون امتعاضهم.. فالجميع يكتمون الحب ولا أحد يُعبّر عنه بكل وضوح إلا خفية أثناء الصلاة، والجميع يرتل سرا.. فليحفظ الله حبيبي.

لا أحد يجرأ على قول أحبك والكل يدعوا.. الكل يرتل والكل يترنح في حبه الصامت.. تراتيل.. تراتيل وترانيم حب صامته.. لا أحد يجيد غير ذلك والكل مؤمن ولِكل واحد حبيبة ولا أحد سعى لها سعيها.

خطر بباله أن الحديث عن السِيَر وعن الحب في أول خطبة له قد لا يكون مجديا.. وأن الأجدر به أن يفسِّر لهم آية كقوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم..."

أو يشرح لهم حديثا ورد فيه "... وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع"

أم أنه سيقول أشياء أخرى تناقض ما تدعو إليه تلك الآيات والأحاديث الواضحة؟

و لكن هل يملك الجرأة على قول شيء لم يجرأ بعد على كتابته ؟ ولو قال الذي خطر بباله هل سيبقى أحد

في المسجد ؟ ألن يفرّوا جميعا خوفا على نفوسهم؟ ألن يلوذوا بالقول (مُسَلْمينْ مُكَتْفينْ) للدلالة على الولاء للمسؤول والبراء من القائل؟ وهل ستجرؤ الصحف والقنوات والإذاعات على نقل كلامه إلا من باب قال المنحرف.

لأجل ذلك كله رأى علاء أن الصمت أولى من الكلام.. وقرّر أنه سيصعد المنبر يوم الجمعة وسيواجه جموع الصامتين بالصمت ذاته، أو ربما لن يذهب للمسجد إطلاقا يومها فهو غير قادر على مواصلة الصمت.. هو يريد أن يقول كل الذي بداخله.. بلسانه أو بغير لسانه، لا يهمه أي عضو منه يتكلم.. المهم أن لا يظل صامتا، ولو كلفه الأمر أن يحدِّث صخور الكلس بجسده.

جلس علاء يوم الجمعة 22 فيفري 2019م على تلة (المولیمو).. وجَالسَ الكمنجة يحدثها متأملا واد الرمال.. تاركا المصلين في الجامع الأخضر ينتظرون قدومه، عسى غياب المسؤول الأول عن المسجد أن يدفعهم لقول شيء ما.

لم يصلي يومها صلاة الجمعة ولا تماثيل المدينة صلّت، ربما أذهلهم رؤية علاء وهو يقف على حافة (الريميس).. وجسده يتدلى من على واد الرمال.. كأنه

يريد أن يلقي بنفسه إلى تلك الصخور البعيدة التي أخذت تراوده عن جسده.. تريد أن تضمه إليها ضمة عنيفة تدق بها عظمه وتخلط بأتربتها دمه.. تبدو تلك الصخور مشتاقة إليه أكثر من شوقه هو لأناغيم، يشعر أنها تناديه باسمه وقد طالت ساعات وقوفه على الحافة.

بدأ علاء يسمع واد الرمال يصدر أصواتا لم يكن قد سمعها من قبل، ترتفع أكثر فأكثر كلما همَّ بأن يلقي بجسده إلى الوادي.

التفت إلى الخلف وإذا بالصوت يأتيه من كل جانب.. وما الوادي إلا بوق المدينة الذي يردد صدى أصوات أبنائها.. وجموع بشرية تملأ الشوارع.

ظن علاء للوهلة الأولى أنهم رواد الجامع الأخضر جاءوا يرغمونه على إلقاء خطبته.. ولكن أعدادهم لم تكن لتكفيها جنبات ذلك الجامع الصغير.. ولا كل مساجد المدينة، فقد خرج المصلون والذين لم يصلوا يومها.. بل حتى أولئك الذين لا يُجيدون الصلاة.

لم يصدق علاء أن الذي يراه هو جموع البشر.. بل تصوّر أن واد الرمال تمرد وتسلق صخور الكلس ليملأ الشوارع، يمكن أن يفعلها الوادي.. ولكن كيف يفعلها شعب درّب على الخوف وعلى البقاء في

الأخاديد ردحا من الزمن؟ أم أن ذلك صار شيئا من الماضي؟

تساءل وهو يجري باتجاه تلك الجموع ليشاركهم اللحظة والفرحة معا، كيف للوعي أن ينضج في ليلة واحدة؟ كيف لحواجز الخوف أن تنكسر في ليلة واحدة؟ أين سر الجرأة؟ ومن أين تأتَّتْ القدرة على المواجهة؟

ربما لا أحد كان يعتقد أن كثرة الخوف تقتل الخوف؟ ولا أحد كان يتصور أن كثرة الحديث عن الحقائب المفخخة تجعلها أشبه بهدايا أعياد الميلاد.. والمفاجأة عنصرهما المشترك، وأن الإكثار من سحر الحب يجعله سحر للكراهة.. وأن السحر يمكن حقا أن ينقلب.

كيف لم ينتبه السيد سين إلى أن الضغوط تولد الانفجار.. الكبت يولد الانفجار.. الصمت المطلق يولد الانفجار الأعظم.. انفجارا لا يدمّر شيئا بل يبث الحرية في الخلق.. انفجار يشبه الانفجار الأول للوجود وللبناء.

وقبل ذلك لا بد للفقاعة أن تمتلئ أكثر.. ليكون لانفجارها صدى أكبر، والكأس لتفيض لا بد لها أن تمتلئ ليغيّر الخوف مجراه عند امتلائها.. ويصير

الغول خائفا على نفسه من فراشات حبسها وسرق ألوانها.

وجهر الشعب بحبه الدفين للجزائر بعد أن تاه لعقود مع تراتيل حبه الصامتة.

وخرج العاملون والعاطلون عن العمل وليس فيهم عاطل عن الجهر بحب الجزائر، تقدم الشباب وحمزة منهم.. وخلفهم شيوخهم وحمزة أيضا كان منهم.. وعلى رؤوسهم قبعات العز الحمر وقد فهموا معنى "عنقر طربوشك ياباّ" كلٌ يجهر بحبه لا مكان للصمت.. لا مكان للسكوت.. لا مكان للأصوات الخافتة.

كل يصرخ والسماء تصرخ زخات مطر والشعب يردد "يا النو صبي صبي الجزائر هي حبي" وآخرون لا يحفظون التراتيل ودندناتها اكتفوا بالقول أحبك أحبك، فحول ذلك كان أصحاب التراتيل يدندنون، وقام علاء حين توسط الجموع يصرخ كما لم يصرخ من قبل.

واصل صراخه وجهره رغم البحة التي أصابته سريعا من شدة الصراخ.. أو أصابته لأن أحباله الصوتية لم تألف الصراخ.. اعتادت فقط على الهمس

والتمتمات ومع ذلك لم يتوقف علاء عن الصراخ إلا حين رأى أناغيم تصرخ وسط تلك الحشود.

اقترب منها يريد أن ينظر إليها عن قرب.. وأن يصرُخ في وجهها حبا، يريد أن يقول لها كل الذي تمنى قوله من قبل، وسارعت هي أيضا إليه وقد رأته.. ورأت أنه يحاول التسلل من بين تلك السيول البشرية ليصل إليها.

دفع علاء الرجال، استسمح النساء، اعتذر للشيوخ ومر بين أيدي الأطفال وهو يركض باتجاه حبيبته.. وتدافعت أناغيم وسط تلك السيول لتحملها إليه ولتقربها منه أكثر.

أمسك يدها بعد طول عناء.. سحبها إليه قليلا ليمسك يدها الثانية بقوة وليعبث بأصابع يديها بعنف بأشواقه إليها.. وهو يتأملها بعفوية النظرة الأولى.. وقد وقفت أمامه مبتسمة وشفتيها شهيتين كهلال العيد الذي يؤذن للصائمين بالإفطار على كل أصناف الحلويات.. بعد طول صيام.

نظر إليها مليا ليراها كما رآها أول مرة قبل بضعة عشر سنة.. لا يزال لجمالها سطوة السلطان ويمشي جسدها باذخ الحلاوة بثقة ويتكلم اللسان منها بفصاحة.

لم تؤثر السنون الطويلة على سواد المقلتين المنارتين، لم يتغير فيها شيء.. عيونها، طلّتها، لباسها وعطرها.. وكأن قطار جمالها بقي في المحطة الأولى عندما سافر الجميع.

قال لها من دون ارتباك وبملأ فِيهِ أحبك.. لكنها لم تسمعه ففي صوته بحة، وقالت هي أيضا أحبك.. فلم يسمعها فالجميع كان يصرخ.. ولم يكن أمامهما إلا الصراخ كحل أخير للتصريح بالحب.

صرخا كما كان يصرخ الجميع أحبك أحبك بكسر الكاف أو فتحها، كل منهم ينطق أحبك بالشكل الذي يريده وبالشكل الذي يناسبه.

لحظتها لم يكن أحد ينظر لرجل ملتح يرتدي برنوسا وعليه هيبة ووقار الشيوخ.. وعلى ظهره كيس بدت منه مفاتن آلة موسيقية.. وجنبه وردة تمشي لا تريد أن تترك يد حبيبها.. وتصرخ هي الأخرى أحبك أحبك.

ربما غاب أصحاب القلوب المريضة والألسنة الحداد يومها، أو أن كل واحد كان مشغولا بحبه ومتفرغا للصراخ والجهر بذلك الحب، والكل يرتل.. الكل يسبح جهرا حبا كبّارا كبّارا.. صراخا يوازي صمتا وحبا طويلين عظيمين أيا حبيبتي.

امتلأت الساحات بالبشر واكتظت جسور قسنطينة كلها.. فلا أحد بقي تحت تلك الجسور يرتل حبه خفية.. ولا أحد زار في ذلك اليوم (صلاّح) المدينة أو أولياءها، فالكل كان مشغولا بالجهر بالحب.

حتى حسين صاحب القبعة السوداء الكبيرة قرّر أن يرتديها دون خوف، دون وَجَلٍ.. أراد أن يفعلها للمرة الثانية ككل أفراد الشعب.. فنوفمبرٌ واحد لا يكفي.. لكل جيل لا بد من نوفمبر، وقد لا يكفي نوفمبر واحد لجيل قد عَمَّر جل جلالك فينا يا نوفمبر.

و جموع تتدافع كأنهم في سباق للحرية أو في صراع سلمي للثيران.. لم يكن هناك أي ثيران.. لكن علاء كان يرى ثورا عظيما يقع على الأرض، والجميع كان يطارده ولم يكن هو الذي يطارد الجميع في الشوارع الضيّقة.

حين وقع ذلك الثور على الأرض لم يقترب منه أي أحد لينال منه، فالجميع كان يشعر بأنه مدين للثور بشيء ما، وربما الشعوب العربية مجبولة فطريا على تقديس الثيران التي كانت تعبدها من قبل خوفا.

ومع ذلك خطر ببال علاء أن يحمل شيئا حادا ليغرسه في ذاك الجسد ويلعنه ليتقرب بفعله هذا للوطن، يا من كان حمدك هو الوطن بأكمله.

حمل علاء قلما بدل السكين فهو لا يزال يخاف من ذلك الثور.. فالثيران تبقى ثيرانا حتى بعد الموت، أو ربما ليس الخوف هو الذي جعله يحمل قلما ؟ فقد رأى أن القلم أشد إيذاء من السكين، فهو يقتل بعد الموت أكثر من مرة.. وهو أكثر إنصافا عند الغضب.

غرسه في جسد ذلك الثور المتهالك دون أن يبالغ بفعله.. ودون أن يتجاوز الشحم واللحم إلى العظم.. ودون أن يمر على صفحات ماضيه كلها، ومع ذلك وقع القلم على صفحة كتب فيها شاب مجاهد.. وأخرى عجوز خانته بطانته كحكاية الموت القادم من الشرق، حينها استل علاء قلمه لا يريد أن يعبث بتناقضات الحكايات أكثر.

وحكاية أخرى لم ترد من الشرق ولا من الغرب حكاها شعب الجزائر وهو يشيّع السحرة إلى سجن الحراش بالزبادي.

لم يكن يتصور الساحر ولا المسحور أن هذا يمكن أن يقع.. ولا حتى هاروت وماروت أدرك ذلك.. ولا خطر كل الذي حدث ببال الجن التي وُكلت بحراسة السحر وتجديده.

فأرواح الأبرياء التي أُزهقت لم تضع.. والدماء التي سالت تأبى النسيان.. والدموع التي ذُرفت في عشرية سوداء صارت قناديلا للحرية.

و من كل الجهات وفي كل الساحات ارتفعت الرايتان إلى العلى.. ليس على أعمدة من حديد ولكن رفعها أبناء الجزائر.. وهذه المرة ارتفعت الرايتان ومعها الأصوات مقسمة بالنازلات الماحقات والدماء الزكيات الطاهرات.. وبربهن جميعا أن تحيا الجزائر، وبأن تحيا فلسطين.

كل الشباب الذين لم يُقسموا من قبل خوفا أو حياء أقسموا وأعلنوا حبهم وجهروا به.. وكل الذين تمنوا الخروج لنصرة فلسطين الجزائرية ولو ليوم واحد فعلوها دون خوف ودون جمود عاطفي.

و استعادت قسما معانيها المقدسة في النفوس.. لم يعد أحد يتهكم أو يسخر حين يتحدث عن تقسيم السُرّاق لثروات البلد ويختزلها بقوله "قسما" وهو يضحك.

فقسما استعادت عافيتها كنشيد كتب بالدم.. يروي أساطير شعب قرر أن تحيا الجزائر.. ويحكي كيف نبتت شجرة الحرية في تربتها التي طهرتها الدماء.. شجرة أزلية لا تزول ولا تموت.. وإن قُطعتْ أو بُترتْ

فسرعان ما تعود غضة الأفنان تستظل تحت أغصانها الباسقة كل الشعوب الحرة.

أقسم الشباب ولم يتركوا للمذياع فرصة ليسبقهم ولا ليصدح بقسمهم يومها، هم المذياع لا مذياع غيرهم في حب الوطن، وارتدّ صدى صرخاتهم في جوف كل مذياع كما كان يرتدّ صدى المذياع في أجوافهم.

أقسم الشباب في هذا اليوم كما أقسم أجدادهم يوم خرجت فرنسا في نفس اليوم الذي دخلت فيه صاغرة مكرهة ذليلة.. وردد أحمد سعيد على أمواج إذاعة صوت العرب نبأ الاستقلال "من مصر هنا الجزائر" ولكن هذه المرة من الجزائر...هنا الجزائر.

وكان الشعب كله أحمد سعيد فهو من قالها يومها فقط سلّم جيل (طاب جنانو) الراية للشباب "وما كادوا يفعلون" بل انتزعها الشباب بحرارة نوفمبر وكما في كل مرة بالجهر بالحب.

***

خسر كل الذين راهنوا على سكوت الشعب وعلى جمود عواطفه.. خسر كل الذين راهنوا على خشونته فقالها "سلمية سلمية"

لم يكن يخطر ببال أحد أن الحناجر يمكن أن تكون أقوى من الخناجر.. وأن الألسن تستطيع أن تقتل

بنعومتها آلاف المستبدين.. أكثر مما تقتل السواعد، فما أقوى كلمة سلمية وما أشد رعب صداها في نفوس المستبدين يومها.

خسر كل الذين راهنوا على ثقل لسانه وحسبوه أعجميا.. فقالها خيرا مما قالها العرب.. بعامية أفصح من العربية الفصحى وهو يخاطب الفساد (ترحل، يعني ترحل).

"الشعب قالها جازما اليوم نأخذ ما اغتصب
عمر الفساد قد انقضى وانتهى وقت اللعب
الضرع جف حليبه والقوت منا قد نهب
سنستعيد كرامة تحت سيل من غضب"[1]

توقف سيل البشر في قسنطينة عند دار الوالي.. وعند دار الوالي في كل ولاية ولم يتوقف الغضب، توقف السيل عند داره ومعه توقف الفرودار عن دفع المال للسراق وقبله خوفه منهم توقف ولم يتوقف الجهر بالحب.

[1]- من قصيدة إرادة شعب، للشاعر علي علوي.

توقف السيل عند دار الوالي وتوقفت قوارب الموت عن الإبحار ولو لبضعة أسابيع.. وعَيْنُ الشاب التي دَمَعَتْ حين تمنّى الهجرة لفرنسا الجنة دَمَعَتْ ثانية.. وقد رأى الشاب نفسه دون هجرة أنه في الفردوس لا في الجنة.

حين توقفت الجموع عن المسير ترك علاء يد أناغيم فقد أحس بوخزٍ ما في يده.. أعاد بسرعة التقاط يدها، أمسكها مرة أخرى وتحسسها دون أن ينظر إليها ليتأكد إن كانت تضع خاتما في بنصرها.

لحظتها شعر أن الوخز كان أشد وموضعه القلب وليس اليد، وأن العرق الذي في يدها ليس من طول إمساكه لها لساعات.. وإنما هو لعاب كلب ولغ في الإناء.

أفلت علاء يد أناغيم للمرة الأخيرة وقد أيقن أنه يمكن أن تسترد وطننا متى شئت.. فللوطن أكثر من عرس، ولا يمكن أن تسترد حبيبا لم تقاتل لأجله يوم عرسه الوحيد.. وتَرَكْته يرقص حبا لوحده.

بقيت أناغيم واقفة مكانها في ذهول وهي ترى علاء يجري باتجاه (الكورنيش) متجاوزا شارع القصبة.

أخذ يركض باحثا عن ذاته.. عن حبه.. عن أمه.. وحين تموت أمك يموت فيك شيء من الوطن.. لا وطن لك أحنّ من الأم وإن لك حنّ الوطن.

سار يبحث عن حبه وهو يسكنه.. عن كاهنة ليرى فيها جمال أوهامه.. عن الكمنجة وهي على ظهره.. عن أناغيم وقد تركها خلفه.

ركض باحثا عن كل الذين أحبهم يريد أن يستعير ساعة من الماضي ليجهر لهم بالحب، بدت له أن كل ساعات الجهر بالحب لا توازي ساعة من الماضي الذي لا يسترد "فبعض الهوى لا يقبل التأجيلَ".

و استمر الصراخ والتراتيل.. تراتيل تراتيل حب لم تكن صامتة لم تكن خافتة لم تكن خفية.

"شعب الجزائر سيد كيف يحكمه الخشب
الشرخ بيننا واضح واليوم قد عظم العطب
الأصل بيننا ناصع نحن السلالة والنسب
نحن الجواهر معدننا نحن المعالي والرتب"

لم تفهم أناغيم لما ابتعد عنها علاء في لحظة الحب تلك.. هي لم تشبع من قول أحبك تريد أن تقولها له أكثر.

أخذت تجري هي الأخرى لتلحق به ولتُسمعه مزيدا من كلمات الحب.. وهي غير مصدقة للذي يحصل معها، لوهلة انتابتها شكوك الأحلام.. لكن التراتيل كانت قوية جهورية ولا يمكن أن تكون مناما.

"نحن من أهدى النفيس وقت المصائب
والكرب الهدي كان دماءنا فاستحى منها الذهبْ
شعب الجزائر قاهر للظلم في كل الحقب
شعب الجزائر سيد كيف يحكمه الخشبْ"

واصل علاء سيره وابتعد أكثر عن سيول البشر وأناغيم تحاول عبثا اللحاق به.. وعلاء يسرع أكثر لا يريدها أن تدركه، ربما كان يريدها أن تبقى بعيدة عنه ليحافظ على قدسيتها في نفسه وفي داخله، إن اقتربت أكثر سيدرك حينها أنها تأكل الطعام.. وأنها ليست كالكمنجة قدسيتها في البعد كما في القرب لا تتغير.

وصل إلى جسر العشاق وهو يتبع أصوات داخلية تناديه.. وكان سيره على الجسر لحظتها كسمفونية محكمة الإيقاع.. لا كموسيقى نشاز كما كان في سيره الأول عليه.

تأمل واد الرمال حين وقف تحت أجنحة إلهة الانتصار.. ليرى صورة أمه ووالده، وأختيه على

صفحات الماء.. وصوته الداخلي يشتد أكثر ويمتزج بصوت شلالات واد الرمال.. حتى صار الصوت صوتا واحد ودويا واحدا وحبا واحد تلهج به كل الألسنة.

أمه أمامه تقول تعال أحبك وأناغيم خلفه تلهث قائلة:

- توقف أحبك.. توقف يا علاء لقد مات.. لقد مات.

و الجنية العاشقة لا تزال صامتة.. هي الوحيدة التي لم تتكلم.. وأجنحتها لا تزال صافات، وهوى جسد علاء دون أن يسمع آخر كلام أناغيم.

لحظتها رفرفت الأجنحة ومعها صوت أنثوي آخر يقول أن أيضا أحبك أحبك.

تراتيل الحب كلها لم تعد خفية بل جهورية، وانتُزع المسمار الأخير من نعش كان يرقد فيه الحب.. رغما عن أنوف الجميع.. رغما عن عواصم كان يؤرِّقها ويسيل لها العرق البارد أن ترى الحب جهوريا في الجزائر.. وأن ترى شعبها يلهج بحلم الجمهورية الثانية.

ذهب علاء دون أن يسمع آخر كلمات أناغيم.. كانت تسأله باكية وجسده يهوي:

- لما تركتني في هذا العرس أيضا يا علاء؟ ألا يكفيني تخلفك عني في العرس الأول؟

لحظتها كان يجيبها ولكن لم تكن تسمعه.. كان يعتذر لها عن فعله ولكن لم تكن تعي قوله.. كان يردد كلماتها عن نجمة، وأن أسباب الانتحار لا تقنع غير الفاعل.. ولكن التراتيل الجهورية حجبت ما دونها من الكلمات.

و أدركته الصخور والجنية معا قبل أن يعبِّر لها عن خوفه من الأعراس.. وأنه تجاوز ضعفه.. خوفه.. صمته، لكنه لا زال يذكر دعوتها المفخخة تلك.. ويخشى أن يكون هذا عرسٌ مفخخ أيضا هنا، لذلك غادر فهو لن يتحمل أن يجتمع عليه عرسين مفخخين.

في تلك اللحظة بالذات وقع القلم من علاء في المستشفى وتغير لون الحبر،.. كأن بالقلم قرحة ما.. ولون القرحة ليس أسودا، أو كأن القلم يريد أن يعود إلى غطائه مجددا.. وقد أدرك بما فيه الكفاية حاملهُ.. أن كل ما كتبه على الأوراق الطبية لا يمكن أن يجعل منها وصفات، أو أن الداء تفشى.. والورم لم يعد ينفع معه أي ترياق.

القوارب عادت لتبحر مجددا نحو المجهول بعد انتهاء صلاحية جمعات الحلم المتتابعة.. وكل

الأعراس ولاشك مفخخة، والعروسة عند الأمازيغ لا تزف بغير البارود.. فهي في عرسها ضحية، وربما كل ذلك من نبوءات زرقاء اليمامة فقط.

لكن حتى زرقاء اليمامة ذاتها لم تتنبأ بيوم يشكوا فيه الذئب من جور ذات القبعة الحمراء.. التي بدأت تشكُ في صدق حكاية الزبادي، وكما تقول النبوءة لا كما تقول الحكاية "في الموسم الآتي سيأكل آدم تفاحتين وذنبه لن يغفر"

"شَجَرٌ من الحدسِ القَدِيْمِ هَزَزتُهُ
حَتّى قَبضتُ المَاءَ حينَ تبخّرَا
لا سِرّ.. فانُوسُ النُبوة قالَ لي
ماذا سيجري حينَ طالعَ مَا جَرَى"

إن أنجبت الأم بنتا ستضع فوق البيت خمار لنهاجر.. وإن أنجبت ذكرا سيضع أحدهم بدل القبعة خمارا كي لا نعود، وربما لم تكن زرقاء اليمامة محقة في نبوءاتها، وربما كانت محقة، تبا لها وفقأ الله عينها إن كانت محقة، وإن لم تكن محقة تبا للورق.. تبا للقلم.. تبا للشك وتبا لربما.

آن الأوان ليكسر أحدهم قلمه.. كيف للقلم أن لا ينكسر وقد سبقته أحلام الشباب إلى ذلك.. والكمنجة توقفت عن البكاء فجأة وإن كانت لا تجيد غيره، ربما "اشتمت رائِحَةَ القَمِيصِ وطالمَا هطَلَ القَميصُ على العُيُون وبَشّرَا".

الفهرس

الإهداء الأول:.....7

الإهداء الثاني:.....9

المشهد الافتتاحي: ما قبل الأذان.....11

المشهد الثاني: تكبير لغير الصلاة.....32

المشهد الثالث: الخمرة الأولى.....55

المشهد الرابع: راودته عيونها لتكسر صمته.....80

المشهد الخامس: مواعدة على سحر الحب.....101

المشهد السادس: حلم البوح بالحب على مسرح النسيان.....125

المشهد السابع: هزائم الحب.....147

المشهد الثامن: أجرة البكاء على حبيب ما.....174

المشهد التاسع: العجز عن العزف على عتبات مدرسة الحب.....197

المشهد العاشر: جنون الفراق الأكبر.....224

المشهد الأخير: مجانينٌ يصرخون عزفا وحبا ولكن بعد الصلاة.....257

الفهرس.....284